الباب الثانى

الفصل الأول

مدرسة المعتزلة

قام الاعتزال أول ما قام دفاعاً عن الدين وحماية للعقيدة ذلك «أن كثيرين ممن دخلوا فى الإسلام بعد الفتح كانوا من ديانات مختلفة يهودية ونصرانية ومانوية وزرادشتية وبراهمة وصابئة ودهريين وغيرهم وكانوا قد نشأوا على تعاليم هذه الديانات وشبوا عليها وكان ممن أسلم علماء فى هذه الديانات فلما اطمأنوا وهدأت نفوسهم واستقرت على الدين الجديد وهو الإسلام أخذوا يفكرون فى تعاليم دينهم القديم ويثيرون مسائل من مسائله ويلبسونها لباس الإسلام[1] وكان منهم الروافض الذين أدخلوا على الإسلام كل ما هو غريب عنه من آراء ومعتقدات كدرت صفاءه[2] وقد نهض المعتزلة بادئ ذى بدء لمناهضة الروافض

---

(١) ضحى الإسلام لأحمد أمين جـ ٣ ص ٧ .

(٢) تلقت الرافضة التشبيه عن اليهود (فشبهوا بعض أئمتهم بالإله تعالى وتقدس (الملل والنحل جـ ١ ص ٥٠ للشهرستانى المطبعة العنانية سنة ١٣٦٣ هـ) كما قالوا بالتناسخ والحلول وكان التناسخ مقالة لفرقة فى كل أمة تلقوها عن المجوس المزدكية والهند البرهمية ومن الفلاسفة والصابية — الملل والنحل جـ ١ ص ١١٠ للشهرستانى — . ومانى الثنوى قال بالتناسخ فى بعض كتبه وذكر أن أرواح الصديقين إذا خرجت من أبدانهم اتصلت بعمود الصبح إلى أن تبلغ النور الذى فوق الفلك ويكونون فى السرور دائماً وأرواح أهل الضلالة تتناسخ فى أجسام الحيوان فلا تزال تنتقل من حيوان إلى حيوان إلى أن يصفو من ظلمته فحينئذ تتصل بالنور الذى فوق الفلك . وقوم من اليهود يؤمنون أيضاً بتناسخ الأرواح ويقولون نهم وجدوا فى كتاب دنيال أن الله تعالى مسخ بخت نصر فى سبع صور من صور الدواب والسباع (التبصير فى الدين للإسفرايينى ص ٨٠ — ٨١ مطبعة الأنوار الطبعة الأولى سنة ١٣٥٩ هـ) . أما الحلول فذهب الرافضة فيه أن الله تعالى قائم بكل مكان ناطق بكل لسان ظاهر بشخص من أشخاص البشر (الملل والنحل للشهرستانى جـ ١ ص ١٠١) وقال الرافضة بالرجعة على نحو ما قال اليهود حين زعموا أن النبى إلياس صعد إلى السماء وسيعود فيعيد الدين والقانون فقال ابن سبأ اليهودى لما قتل على: «لو أتيتمونا بدماغه ألف مرة=

إذ كانوا أخطر الفرق فى الإسلام التى تسلل إليها كل ما هو دخيل عليه ، وأهم أصول الاعتزال موضوعة للرد عليه . يقول الخياط : « إن الرفض مشتمل على أجناس من الكفر لا يشتمل عليه مذهب فرقة من فرق الأمة »[١] لذلك نصب المعتزلة أنفسهم لمناظرة الرافضة . فدارت مجالس بين على الأسوارى المعتزلى وبين على بن ميثم الرافضى فى الإمامة أخزى الثانى فيها وقطع أوحش قطع[٢] وجمع بين هشام بن الحكم الرافضى وأبى الهذيل المعتزلى بمكة وحضرهما الناس فظهر من انقطاعه وفضيحته وفساد قوله ما صار به شهرة فى أهل الكلام وكذلك كان على بن ميثم بالبصرة فى أيدى أحداث المعتزلة وكذلك كان السكاك وكلاهما رافضى[٣] . وصنف الجاحظ مؤلفاً لفرق الرافضة أخبر عنهم فيه بقول قول ليعلم الناس اشتمال الروافض على ما لم يشتمل عليه مذهب من مذاهب أهل الملة[٤] . كما نقض الخياط كتب الرافضيين : أبى حفص الحداد وأبى عيسى الوران[٥] وابن الراوندى الذى كان معتزلياً ثم أظهر الإلحاد والزندقة فطردته المعتزلة فلجأ إلى الرافضة ووضع الكتب الكثيرة فى مخالفة الإسلام فنقض أكثرها الشيخ أبى على الجبائى والخياط والزبيرى[٦] .

= ما صدقنا موته ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً » وقد نمت هذه الفكرة عند الشيعة فقالوا كذلك فى بعض الأئمة الذين اختفوا ثم قالوا كذلك فى المهدى المنتظر (ضحى الإسلام لأحمد أمين ج ١ ص ٣٥٤ – ٣٥٧) وشذ الروافض عن جملة المسلمين كما يقول أبو الحسن الأشعرى ، فزعموا أن نسخ القرآن إلى الأئمة وأن الله جعل لهم نسخ القرآن وتبديله وأوجب على الناس القبول منهم وأصحاب هذا القول طبقتان : منهم من يزعم أن ذلك ليس على معنى أن الله يبدو له البدوات وقالت الفرقة الأخرى منهم – ن الله لا يعلم ما يكون حتى يكون فينسخ عند علمه بما يحدث من خلقه وفيهم مما لم يكن يعلمه ما يشاء من حكمه قبل ذلك فتحول حكمه فى الناسخ والمنسوخ على قدر علمه بما يحدث فى عباده فكلما علم شيئاً كان لا يعلمه قبل ذلك بدا له فيه حكم لم يكن له ولا علمه قبل ذلك (مقالات الإسلاميين للأشعرى ج ٢ ص ٦١١) .

(١) الانتصار للخياط ص ١٥٦ ط سنة ١٩٢٥ م .

(٢) الانتصار للخياط ص ٩٩ .

(٣) لانتصار للخياط ص ١٤٢ .

(٤) الانتصار للخياط ص ١٥٦ – ١٥٧

(٥) الانتصار للخياط ص ٩٦ ، ٩٧ .

(٦) المنية والأمل ص ٥٣ للمرتضى . ط دائرة المعارف بالهند سنة ١٣١٦ هـ .

كذلك كان لأهل الكتاب دورهم فى حرب العقيدة والجدل فيها . فاليهود يثيرون مسألة الناسخ والمنسوخ للتشكيك فى الدين . يقول أبو جعفر النحاس فى مقدمة كتابه « الناسخ والمنسوخ »: « . . وإنما يقع الغلط على من لم يفرق بين النسخ والبداء والتفريق بينهما مما يحتاج المسلمون إلى الوقوف عليه لمعارضة اليهود الجهال فيه»(١) .

والنصارى يحدثنا الجاحظ عن دورهم فى الطعن على القرآن فيقول « . . على أن هذه الأمة لم تبتل باليهود ولا المجوس ولا الصابئين كما ابتليت بالنصارى وذلك أنهم يتبعون المتناقض من أحاديثنا والضعيف بالإسناد من روايتنا والمتشابه من آى كتابنا ثم يخلون بضعفائنا ويسألون عنها عوامنا مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة الملاعين وحتى مع ذلك ربما تجرءوا على علمائنا وأهل الأقدار منا ويشغبون على القوى ويلبسون على الضعيف . . وبعد فاولا متكلمو النصارى وأطباؤهم ومنجموهم ما صار إلى أغنيائنا وظرفائنا ومجاننا وأحداثنا شىء من كتب المانية والديصانية والمرقونية والفلاتية ولما عرفوا غير كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ولكانت تلك الكتب مستورة عند أهلها »(٢) .

كان لا بد إذن من مهمة الدفاع عن الإسلام فى ذلك الميدان الذى يدور فيه الصراع الفكرى وهو القرآن. إن الخصم لا يعترف بالنص القرآنى فكيف يجادله المسلم وكيف يقنعه ؟ أما أصحاب الحديث — كأحمد بن حنبل وداود ابن على الأصفهانى فكانوا على منهاج السلف المتقدمين عليهم من أصحاب الحديث ، قالوا : نؤمن بما ورد به الكتاب والسنة ولا نتعرض للتأويل بعد أن نعلم قطعاً أن الله عز وجل لا يشبه شيئاً من المخلوقات وأن كل ما تمثل فى الوهم فإنه خالقه ومقدره . . ونقول كما قال الراسخون فى العلم كل من عند ربنا آمنا بظاهره وصدقنا بباطنه ووكلنا علمه إلى الله تعالى ولسنا مكلفين بمعرفة ذلك

---

(١) الناسخ والمنسوخ لأبى جعفر النحاس ص ٥ المكتبة العلامية سنة ١٣٥٧ هـ .

(٢) ص ١٧٤ — ١٧٥ من رسائل الجاحظ على هامش الجزء الثانى من الكامل للمبرد . مطبعة التقدم العلمية سنة ١٣٢٣ مصر .

إذ ليس من شرائط الإيمان وأركانه[١] . فهؤلاء لا يستطيعون إقناع الخصوم لاعتمادهم على النقل بل على ظاهره والنقل لا يعترف به الخصم[٢]،وقد تقدم المعتزلة بدور المدافعين عن الإسلام وكان عليهم أولا أن يتسلحوا بسلاح الفلسفة اليونانية وما فيها من منطق وما امتزج بها من لاهوت لأن أصحاب الديانات والمذاهب الأخرى المناهضة للإسلام كانوا قد أحاطوا دياناتهم بسياج فلسفى ،وطبيعى أن يطلع المعتزلة على رأى خصومهم يتأملونه ويدرسون مواطن القوة والضعف فيه ليهاجموهم من الجانب الضعيف فيقودوهم إلى الهزيمة ،وما كان يتسنى لهم ذلك بغير معرفة السياج الذى يتحصن به أصحاب تلك الديانات وهو الفلسفة .

واستعرت حرب ضروس من الجدل والنقاش بين المعتزلة وبين أصحاب الديانات والمذاهب البائدة أبلى المعتزلة فيها خير بلاء.. يقول الخياط المعتزلى مصوراً دور المعتزلة فى خدمة الدين: « وهل يعرف أحد صحح التوحيد وثبت القديم جل ذكره واحداً فى الحقيقة واحتج لذلك بالحجج الواضحة وألف فيه الكتب ورد على أصناف الملحدين من الدهرية والثنوية سواهم»[٣] وعمرو الباهلى يقول : قرأت لواصل الجزء الأول من كتاب الألف مسألة فى الرد على المانوية قال: فأحصيت فى ذلك الجزء نيفاً وثمانين مسألة؛ويقال إنه فرغ من الرد على مخالفيه وهو ابن ثلاثين سنة[٤]؛ ويحكى المرتضى يقول : إن مناظرات أبى الهذيل مع المجوس والثنوية وغيرهم طويلة ممدودة وكان يقطع الخصم بأقل كلام يقال إنه أسلم على يده زيادة على ثلاثة آلاف رجل[٥]، ونلمح فى كتاب الجاحظ آيات لذلك فهو يرد على الدهرية طعنهم فى ملك سليمان وملكة سبأ[٦] ويرد

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى جـ ١ ص ٥٨ و ٥٩ .

(٢) سأل سمنى رجلا من أهل الحديث كان الرشيد قد بعثه لجداله . أخبرنى عن معبودك هل هو القادر ؟ قال المحدث: نعم قال: أفهو قادر على أن يخلق مثله ؟ فقال المحدث هذه المسألة من علم الكلام وهو بدعة وأصحابنا ينكرونه . . . فطرب السمنى إذ ظهر على صاحب الحديث (القصة بتمامها ص ٣١ من المنية والأمل للمرتضى) .

(٣) الانتصار للخياط ص ١٧ .

(٤) المنية والأمل للمرتضى ص ٢١ .

(٥) المنية والأمل للمرتضى ص ٢١ .

(٦) الحيوان للجاحظ جـ ٤ ص ٨٥ — ٩٣ . ط الحلبى سنة ١٩٣٨ م .

على زرادشت تخويفه أصحابه بالبرد والثلج[١] ويرد معارضة بعض المجوس فى عذاب النار[٢] كما أنه يجادل النصارى جحدهم كلام عيسى فى المهد[٣] ويورد الجاحظ أيضاً آراء وردود أستاذه النظام على أصحاب الديانات المختلفة[٤].

وجدت إذن فى تاريخ الفكر الإسلامى مدرسة المعتزلة وقد تبلورت آراؤها وأفكارها فى تلك الأصول التى يجملها المرتضى بقوله: « وقد أجمعت المعتزلة على على أن للعالم محدثاً قديماً قادراً عالماً حيًّا لا لمعان ليس بجسم ولا عرض ولا جوهر عيناً واحداً لا يدرك بحاسة عدلا حكيما لا يفعل القبيح ولا يريده . كلف تعريضاً للثواب ومكن من الفعل وأزاح العلة ولا بد من الجزاء وعلى وجوب البعثة حيث حسنت ولابد للرسول صلى الله عليه وآله من شرع أو إحياء مندرس أو فائدة لم تحصل من غيره وأن آخر الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن معجزة له وأن الإيمان قول ومعرفة وأن المؤمن من أهل الجنة . وعلى المنزلة وهو أن الفاسق لا يسمى مؤمناً ولا كافرا إلا من يقول بالإرجاء فإنه يخالف فى تفسير الإيمان؛ وفى المنزلة فيقول الفاسق يسمى مؤمناً . وأجمعوا أن فعل العبد غير مخلوق فيه . وأجمعوا على تولى الصحابة ، واختلفوا فى عثمان بعد الأحداث التى أحدثها فأكثرهم تولاه وتأول له . . وأكثرهم على البراءة من معاوية وعمرو ابن العاص وأجمعوا على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[٥].

وقد تعصبت المعتزلة لتلك الأصول — وإن كان لهم خلافهم فى دقيقها — وفنيت دونها إذ يرون مؤسسها الأول هو المعلم الإسلامى الأول محمد صلى الله عليه وسلم . يقول المرتضى : « ويفخر المعتزلة بأن سند مذهبهم أصح أسانيد أهل القبلة وأنه أوضح من الفلق إذ يتصل إلى واصل وعمرو اتصالا ظاهراً شاهراً وهما أخذا عن محمد بن على بن أبى طالب وابنه أبى هاشم عبد الله بن

---

(١) الحيوان للجاحظ جـ ٥ ص ٦٨.
(٢) الحيوان للجاحظ جـ ٥ ص ٦٩–٧١ .
(٣) رسائل الجاحظ على هامش الجزء الثانى من الكامل للمبرد ص ١٧٩–١٨٤ .
(٤) كرده مثلا على الديصانية . الحيوان للجاحظ جـ ٥ ص ٤٦ .
(٥) المنية والأمل للمرتضى ص ٦ .

محمد ، ومحمد هو الذى ربى واصلا وعلمه حتى تخرج واستحكم ومحمد أخذ عن أبيه على بن أبى طالب عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[١] وأما سائر المذاهب فلا سند لها معمول به . فالخوارج مذهبهم حدث فى أيام على عليه السلام وقد ظهرت تخطئته إياهم ومناظرته لهم وقتال من بقى على ذلك الاعتقاد[٢] وأما الرافضة فحدث مذهبهم بعد مضى الصدر الأول ولم يسمع عن أحد من الصحابة من يذكر أن النص فى على «جلىّ» متواتر ولا فى اثنى عشر كما زعموا بل أول من أحدث هذا القول عبد الله ابن سبأ ولم يظهر قبله[٣]. وأما المجبرة فحدث مذهبهم فى دولة معاوية وملوك بنى مروان فهو حادث مستند إلى من لا ترضى طريقته . وأما الحشوية فلا سلف لهم وإنما تمسكوا بظواهر الأخبار ولا يرجعون إلى تحقيق[٤] .

ثم راح المعتزلة يذكرون أخباراً يستنصرون بها كسند موسوم بالصدور عن الرسول والخلفاء الراشدين وأعلام من الصحابة والتابعين تقرر مبادئهم وأصولهم فالاعتزال عندهم تعاليم للرسول وأصول إسلامية راسخة يحكون خبراً عن على — يبين عليه الوضع — يقول فيه : « . . إن الله تعالى أمر تخييراً ونهى تحذيراً ولم يكلف مجبراً ولا بعث الأنبياء عبثاً » [٥]، ويروون أن أبا بكر سئل عن الكلالة وابن مسعود عن المرأة المفوضة فى مهرها فقال كل واحد منهما حين سئل : أقول فيها برأيى فإن كان صواباً فمن الله ، وإن كان خطأ فمنى ومن الشيطان . ويستنتجون من هذا التصريح بالعدل وإنكار الجبر[٦] ويقول المرتضى فى خبر يرويه عن عمر : « وتعزير عمر لمن ادعى أن سرقته كانت بقضاء الله مصرح بنفى الجبر لأنه أتى بسارق فقال : لم سرقت ؟ فقال : قضى الله على .

---

(١) المنية والأمل للمرتضى ص ٥ .
(٢) المنية والأمل للمرتضى ص ٤ .
(٣) المنية والأمل للمرتضى ص ٤، ٥ .
(٤) المنية والأمل للمرتضى ص ٥ .
(٥) الخبر بتمامه ص ٧ ، ٨ من المنية والأمل للمرتضى .
(٦) المنية والأمل للمرتضى ص ٨ .

فأمر به فقطعت يده وضرب أسواطاً فقيل له فى ذلك . فقال : القطع للسرقة والجلد لما كذب على الله . ويروون عن عثمان أنه لما قال محاصروه حين رموه : الله يرميك . قال كذبتم لو رمانى ما أخطأنى وهذا عندهم يقتضى إنكار الجبر[١]. ويروون خبراً عن ابن عمر قال فيه : «لعبد يعمل المعصية ثم يقر بذنبه على نفسه أحب إلىّ من عبد يصوم النهار ويقوم الليل ويقول إن الله تعالى يفعل الخطيئة فيه » . ويرون أن هذا الخبر مصرح بنفى الجبر[٢] ويحكون أن ابن عباس قال لمجبرة الشام فى مناظراته لهم: «. . هل منكم إلا مفتر على الله يحمل أجرامه عليه وينسبها علانيةً إليه»[٣]، ويذكرون أن الحسن بن على بعث كتاباً إلى أهل البصرة قال فيه (من لم يؤمن بالله وقضائه وقدره فقد كفر ومن حمل ذنبه على ربه فقد فجر)[٤] ، ويقصون عن الحسن أن رجلاً من فارس جاء إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم وقال : رأيتهم ينكحون أمهاتهم وأخواتهم وبناتهم فإذا قيل: لم تفعلون ذلك ؛ قالوا : قضاء الله وقدره . فقال صلى الله عليه وآله وسلم : أما إنه سيكون فى أمتى من يقولون مثل ذلك قال : أولئك مجوس أمتى . وسئل صلى الله عليه وسلم عن تفسير (سبحان الله) فقال هو تنزيهه من كل شر . وكان يقول فى بعض توجهاته فى الصلاة والشر ليس إليك[٥].

وقد أراد المعتزلة ليحوطوا تعاليمهم التى يرونها مبادئ الإسلام فتسلحوا لها بالأسلحة التى تذود عن حياضها وتصون حرمها وكان أخطر هذه الأسلحة عندهم سلاحين : الفلسفة واللغة . أما عن سلاح الفلسفة فيقول الجاحظ : « ولا يكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام متمكناً فى الصناعة يصلح للرياسة حتى

---

(١) المنية والأمل للمرتضى ص ٨ .

(٢) الخبر بتمامه فى المنية والأمل للمرتضى ص ٨ ، ٩ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٩ .

(٤) نفس المرجع السابق ص ١٠ . وسيفصل الحسن فى هذه العبارة بما لا يخرج عن رأى المعتزلة فى العدل وحرية الإرادة .

(٥) المنية والأمل للمرتضى ص ١٠ .

يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة والعالم عندنا هو الذى يجمعهما»[١] فلما أقبلوا على كتب الفلسفة يدرسونها أصبحوا يدلون بهذه الدراسات الجديدة الوافدة على الفكر الإسلامى . يقول الخياط مخاطباً ابن الراوندى « أوَليس من الدليل على صحة قول المعتزلة وحسن اختيارها وتقدمها فى العلم أن صاحب الكتاب لما أجهد نفسه فى عيبها وذكر خطأ من أخطأ منها فإنما ذكر الكلام فى فناء الأشياء وبقائها والقول فى المعانى والكلام فى المعلول والمجهول والكلام فى التولد والكلام فى إحالة القدرة على الظلم والكلام فى المجانسة والمداخلة والكلام فى الإنسان والمعارف وهذه أبواب من غامض الكلام ولطيفه مما لم يخطر على بال الرافضة ولا يبلغ إليه . ومما يدل على ذلك أنك لاتجد حرفاً واحداً إلا لمن خالف فيه من المعتزلة فأما لغير المعتزلة فلا تجد حرفاً واحداً فى هذه الأبواب إلا لإنسان سرق كلاماً من كلام المعتزلة فأضافه إلى نفسه »[٢].

وكان طبيعيًّا إذ أقبلوا يدرسون ضرباً من العلم يعتمد فيه على المهارة العقلية والرياضة الفكرية أن يقدسوا آلة هذا العلم : العقل . . وهكذا فعلوا . يقول الجاحظ : وللأمور حكمان : حكم ظاهر للحواس وحكم باطن للعقول . والعقل هو الحجة[٣] ويقول بشر بن المعتمر :

لله در العقل من رائـــد ... وصاحب فى العسر واليسر
وحاكم يقضى على غائـــب ... قضيـــة الشاهد للأمـــر
وإن شيئاً بعض أفعالـــه ... أن يفصل الخير من الشر
بذى قوى قد خصه ربه ... بخالص التقديس والطهر[٤]

وأما عن سلاح اللغة فقد كان المعتزلة بحكم مواقفهم الجدلية ودفاعهم عن

---

(١) الحيوان للجاحظ جـ ٢ ص ١٣٤ .
(٢) الانتصار للخياط ص ٧ . وهناك أمثلة أخرى كثيرة لهذا الدلال بالدراسات الفلسفية مثلا ص ١٣ ، ١٤ ، ١٥ إلخ .
(٣) الحيوان للجاحظ جـ ١ ص ٢٠٧ .
(٤) الحيوان للجاحظ جـ ٦ ص ٢٩١ ، ٢٩٢ .

الإسلام مضطرين لانتخاب اللفظ الأنيق والتعبير الرائق الجميل لأن الموقف موقف خطابة ودعوة للدين . ولعل صحيفة بشر وآراء الجاحظ من خير ما يعد فى أصول البلاغة والخطابة . فهم قد أقبلوا على روائع الكلم يحفظونه ويروونه : إن قرآناً أو شعراً، يقول الجاحظ : وروت المعتزلة المذكورون كلهم رواية عامة الأشعار وكان بشر أرواهم للشعر خاصة[١]؛ وكان منهم من يقول الشعر : فالنظام له أشعار تأخذ بالقلب والسمع ملاحة هذا إلى حفظه القرآن والتوراة والإنجيل والزبور وتفسيرها[٢] . ولبشر قصيدة أربعون ألف بيت رد فيها على جميع المخالفين . ويقول الجاحظ إنه لم ير أحداً قوى على المخمس والمزدوج ما قوى عليه بشر[٣]،وكان الجاحظ كثير الرواية للشعر كما تشهد بذلك كتبه كما أنه كان يقوله[٤] .

وإذ كان المعتزلة كثيرى المناظرة والمساجلة،وإذ كانوا يطلعون على كتب الفلسفة والأديان الأخرى،وإذ كانوا يثقفون الأدب خير تثقيف،مرنت اللغة فى أيديهم واتسعت آماد الكلام أمامهم فكان لذلك قاموسهم ومصطلحهم ومعانيهم المولدة . يقول الجاحظ : « إن كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعانى وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له فى لغة العرب اسم فصاروا فى ذلك سلفاً لكل خلف وقدوة لكل تابع ولذلك قالوا العرض والجوهر وأيس وليس وفرقوا بين البطلان والتلاشى وذكر الهذية والهوية والماهية وأشباه ذلك»[٥] .

وصفوة القول أن مدرسة المعتزلة تمثل فى الفكر الإسلامى الطبقة المثقفة الواعية المدافعة عن الإسلام ،فقد كان منها علماء الكلام المتبحرون وأدباء أبيناء وأئمة

---

(١) الحيوان للجاحظ جـ ٦ ص ٤٠٥ .
(٢) المنية والأمل للمرتضى ص ٢٨ .
(٣) المنية والأمل للمرتضى ص ٣٠ .
(٤) أمالى المرتضى جـ ١ ص ١٤٠ ، ١٤١ . الطبعة الأولى بمطبعة السعادة سنة ١٣٢٥ هـ .
(٥) البيان والتبيين جـ ١ ص ٧ ، ٨ . المطبعة العلمية سنة ١٣١١ هـ .

فى النحو وأعلام فى التفسير . ويهمنا هنا بخاصة مفسرى المعتزلة الذين أسهموا فى خدمة القرآن والذين تشير مؤلفاتهم إلى الثروة الفكرية الضخمة الضائعة وإلى هذا النشاط العقلى والحيوية العلمية التى أوتيتها مدرسة الاعتزال. فواصل بن عطاء (ت ١٣٨ هـ) لهمن التصانيف معانى القرآن[١]، ومحمد بن المستنير بن أحمد أبو على المعروف بقطرب (ت ٢٠٦ هـ) بصرى نحوى لغوى ... أخذ النحو عن سيبويه وأخذ عن عيسى بن عمر وجماعة من علماء البصرة وأخذ عن النظام المتكلم إمام المعتزلة وكان على مذهبه، ولما صنف كتابه فى التفسير أراد أن يقرأه فى الجامع فخاف من العامة وإنكارهم عليه لأنه ذكر فيه مذهب أهل الاعتزال فاستعان بجماعة من أصحاب السلطان ليتمكن من قراءته فى الجامع . له من التصانيف : كتاب معانى القرآن وإعراب القرآن والرد على الملحدين فى متشابه القرآن ومتشابه القرآن ومجاز القرآن [٢]، ولبشر بن المعتمر (ت فى حدود ٢١٠ هـ) متشابه القرآن[٣]، وسعيد بن مسعدة الأخفش (ت ٢١١ هـ) يتفق أبو حاتم السجستانى والزجاج والمازنى على أنه كان معتزليًا، وكتابه فى المعانى ينصر الاعتزال [٤] . ولأبى الهذيل العلاف (ت ٢٣٥ هـ) مؤلف فى متشابه القرآن[٥]، ولجعفر بن حرب (ت ٢٣٦ هـ) كتاب فى متشابه القرآن [٦]، وللجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) نظم القرآن والمسائل فى القرآن[٧]، ولأبى على الجبائى (ت ٣٠٣هـ) كتاب متشابه القرآن[٨] وتفسير القرآن[٩]. وأبو عبد الله محمد بن زيد الواسطى

---

(١) جـ ١٩ معجم الأدباء لياقوت ص ٢٤٧ .

(٢) جـ ١٩ معجم الأدباء لياقوت ص ٥٢ – ٥٤ .

(٣) الفهرست لابن النديم ص ٥٧ .

(٤) جـ ١١ معجم الأدباء لياقوت ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ (نقلا عن إنباه الرواة) .

(٥) الفهرست لابن النديم ص ٥٥ .

(٦) الفهرست لابن النديم ص ٥٥ .

(٧) الفهرست لابن النديم ص ٥٧ .

(٨) الفهرست لابن النديم ص ٥٥ .

(٩) طبقات المفسرين للسيوطى ص ٣٣ والفهرست لابن النديم ص ٥١ .

(ت ٣٠٧ هـ أو ٣٠٦هـ) من جلة المتكلمين وكبارهم أخذ عن أبى على الجبائى وإليه كان ينتمى وله كتاب إعجاز القرآن فى نظمه وتأليفه[١]، والأصم من الطبقة السادسة من المعتزلة له تفسير عجيب[٢]، وعمرو بن فايد من الطبقة السادسة من المعتزلة له تفسير كبير[٣]، وموسى الأسوارى من الطبقة السادسة من المعتزلة فسر القرآن ثلاثين سنة ولم يتم تفسيره، ويقال كان فى مجلسه العرب والموالى فيجعل العرب فى ناحية والموالى فى ناحية ويفسر لكل بلغته[٤]. وأبو يعقوب يوسف بن عبد الله بن إسحق الشحام من الطبقة السابعة من المعتزلة له كتب فى تفسير القرآن[٥]، ولأبى القسم عبد الله بن أحمد بن محمود البلخى الكعبى (ت ٣١٩ هـ) كتاب فى التفسير[٦]، ويذكر صاحب كشف الظنون أن تفسيره كبير فى اثنى عشر مجلداً[٧]، وأبو الحسن الأسفنديالى من الطبقة التاسعة من المعتزلة له مؤلفات فى التفسير[٨]، وعبد السلام أبو هاشم الجبائى (ت ٣٢١ هـ) يقول عنه السيوطى له تفسير رأيت منه جزءاً[٩]، ولمحمد بن بحر الأصفهانى (ت ٣٢٢ هـ) كتاب جامع التأويل لمحكم التنزيل على مذهب المعتزلة فى أربعة عشر مجلداً[١٠]، ولابن الإخشيد (ت ٣٢٦ هـ) كتاب نقل

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٢٤٥ المطبعة الرحمانية بمصر.

(٢) ص ٣٢ من المنية والأمل للمرتضى وص ٥١ من الفهرست لابن النديم.

(٣) ص ٣٤ المنية والأمل للمرتضى.

(٤) ص ٣٥ المنية والأمل للمرتضى.

(٥) ص ٤٠ المنية والأمل للمرتضى.

(٦) ص ٥٢ المنية والأمل للمرتضى.

(٧) كشف الظنون ج ١ ص ٣٠٩.

(٨) المنية والأمل للمرتضى ص ٥٩.

(٩) طبقات المفسرين للسيوطى ص ٣٣

(١٠) ج ١٨ معجم الأدباء لياقوت ص ٣٥ و ٣٦ و ص ١٩٦ من الفهرست لابن النديم. والسيوطى يذكر فى طبقات المفسرين ص ٣٢ أن كتابه فى عشرين مجلداً.

القرآن وكتاب اختصار التفسير للطبرى[١]،وله كتاب نظم القرآن[٢]،ولابن الخلال القاضى — لقى ابن الأخشيد — كتاب متشابة القرآن[٣]،ولأبى بكر الشاشى المعروف بالقفال (ت ٣٦٥ هـ) تفسير نصر فيه مذهب الاعتزال[٤]، والحسن بن أحمد أبو على الفارسى (ت ٣٧٧ هـ) كان متهماً بالاعتزال[٥] ،وقد كتب بخطه هو ، ولأبى على من التصانيف كتاب التتبع لكلام أبى على الجبائى فى التفسير نحو مائة ورقة وكتاب تفسير قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة)[٦]،وابن صبر أبو بكر الحنفى (ت ٣٨٠ هـ) كان معتزلياً مشهوراً بهخبيراً فى التفسير وله كتاب التفسير ما أتمه[٧]،ولأبى الحسن على بن عيسى الرمانى (ت ٣٨٤ هـ) كتاب تفسير القرآن المجيد[٨].وقيل للصاحب بن عباد : هلا صنفت تفسيراً ؟ فقال: وهل ترك لنا على بن عيسى شيئاً ؟ وكان الرمانى يقول: تفسيرى بستان يجتنى منه ما يشتهى[٩]، ولإسماعيل بن عباد بن العباس بن عباد الوزير (ت ٣٨٥ هـ) مؤلف فى أحكام القرآن نصر فيه الاعتزال [١٠] ، وعبيد الله بن محمد بن جرو الأسدى المعتزلى (ت ٣٨٧ هـ) صنف فى تفسير القرآن كتاباً لم يتم وذكر فى « بسم الله الرحمن الرحيم» مائة وعشرين وجهاً[١١] » ،وأبو أحمد بن أبى علان من الطبقة الحادية عشرة من المعتزلة له تفسير[١٢]، وقاضى القضاة عبدالجبار الهمدانى

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٢٤٦ .
(٢) الفهرست لابن النديم ص ٥٧ .
(٣) الفهرست لابن النديم ص ٥٥ .
(٤) ص ٣٦ طبقات المفسرين للسيوطى.
(٥) معجم الأدباء لياقوت ج ٧ ص ٢٣٤ .
(٦) معجم الأدباء لياقوت ج ٧ ص ٢٤٠ و ٢٤١ .
(٧) طبقات المفسرين للسيوطى ص ٣٣ .
(٨) معجم الأدباء لياقوت ج ١٤ ص ٧٥ .
(٩) المنية والأمل للمرتضى ص ٦٥ .
(١٠) معجم الأدباء لياقوت ج ٦ ص ١٧٢ .
(١١) معجم الأدباء لياقوت ج ١٢ ص ٦٥ و ٦٦ .
(١٢) المنية والأمل للمرتضى ص ٦٥ .

(ت ٤١٥ هـ) بين أيدينا اليوم من كتبه تنزيه القرآن عن المطاعن[١]، ومحمد بن عبد الله الإسكافي (ت ٤٢٠ هـ) أحد أصحاب ابن عباد له درة التنزيل وغرة التأويل[٢]. والكتاب بين أيدينا اليوم وهو يبحث في متشابهات الآي القرآنية، والشريف المرتضى (ت ٤٣٦ هـ) له الكتاب الذي سماه الغرر والدرر وهي مجالس أملاها تشتمل على فنون من معاني الأدب[٣]، والكتاب بين أيدينا اليوم وهو يعرض فيما يعرض له لتأويل القرآن والحديث فيه وفق مذهب المعتزلة. وأبو مسلم محمد بن علي الأصبهاني المعتزلي (ت٤٥٩هـ) له تفسير للقرآن[٤]، وأبو يوسف القزويني (ت٤٨٣ هـ) شيخ المعتزلة يقول فيه السمعاني: كان أحد المعمرين والفضلاء المقدمين جمع التفسير الكبير الذي لم ير في التفاسير أكبر منه ولا أجمع للفوائد لولا أنه مزجه بكلام المعتزلة وبث فيه معتقده وهو في ثلثمائة مجلد منها سبع مجلدات في الفاتحة. وقال ابن النجار: لم يكن محققاً إلا في التفسير فإنه لهج بالتفاسير حتى جمع كتاباً بلغ خمسمائة مجلد حشا فيه العجائب حتى رأيت منه مجلداً في آية واحدة وهي قوله تعالى: (واتبعوا ما تتلو الشياطين) الآية[٥]. ثم صنف الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) كتاب «الكشاف» فأحيا به ما عفا من تفاسير أسلافه في المذهب ذلك أنه الأثر التفسيري الكامل والوحيد الذي بقي من هذا التراث الهائل؛ فإلى الزمخشري في الفصل القادم.

---

(١) يقول الحاكم فيه في المنية والأمل للمرتضى ص ٦٦: حصر مصنفاته كالمتعذر وفيه يقول الصاحب ص ٦٧ من المصدر عينه: هو أعلم أهل الأرض.

(٢) معجم الأدباء لياقوت ج ١٨ ص ٢١٤ و ٢١٥.

(٣) وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٢٣.

(٤) كشف الظنون ج ١ ص ٣٠٦ ط أوربا.

(٥) طبقات المفسرين للسيوطي ص ١٩.

الفصل الثانى

منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن

(١) تاريخ وظروف تأليف تفسير الكشاف :

فى مكة — فى جوار الزمخشرى الثانى — ألف الزمخشرى كتابه فى التفسير « الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل)، وقد بدأ فى تأليفه سنة ٥٢٦ هـ . فنى نسخة من نسخ الكشاف ما نصه : « فى أصل المصنف بخطه رحمه الله تعالى : وهذه النسخة هى نسخة الأصل الأولى التى نقلت من السواد وهى أم الكشاف الحرمية المباركة المتمسح بها المحقوقة أن تستنزل بها بركات السماء ويستمطر بها فى السنة الشهباء، فرغت منها يد المصنف تجاه الكعبة فى جناح داره السليمانيه التى على باب أجياد الموسومة بمدرسة العلامة ضحوة يوم الاثنين الثالث والعشرين من ربيع الآخر فى عام ثمانية وعشرين وخمسمائة وهو حامد لله على باهر كرمه ومصل على عبده ورسوله وعلى آله وأصحابه أجمعين» (١). والزمخشرى يحدثنا فى مقدمة تفسير الكشاف أنه قد لبث «أعواماً ثلاثة » يؤلف كتابه هذا — ولعله كان مشغلته مدة جواره الثانى . يقول : « ووفق الله وسدد ففرغ منه فى مقدار مدة خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه » (٢)؛ وإلى جانب العامل الدينى الذى أصبح يسيطر على تآليفه فى أخريات حياته فإن هناك عوامل أخرى دفعته إلى تأليف « الكشاف» مصنفه التفسيرى الوحيد . فقد كان علماء المعتزلة الجامعون بين الكلام واللغة يستفتونه فى تفسير بعض الآى فإذا فسر طربوا وأعجبوا واشتاقوا إلى مصنف يضمن هذا التفسير ويسير على نهجه . ثم اقترحوا عليه أن يملى عليهم « الكشاف عن

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٥٧٠ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣ .

حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل » ، فهم الذين أرادوا منه مادة « الكشاف » .ويبين من عنوانه أن غايتهم أن يفسر القرآن تفسيراً اعتزالياً يتضمن الوجوه المعنوية المحتملة لمعانى النص القرآنى . ويظهر أنه أشفق من ضخامة محاولة التأليف فى التفسير القرآنى. ولئن رأينا الزمخشرى يشكو فى مقدمة تفسيره من رثاثة أحوال زمانه وتقاصر هم رجاله — فهى شكوى عهدناها دوماً من العلماء؛ وإن كان محقاً فيها فليست السبب فى استعفائه تحقيق ما أمل رجال المعتزلة من تأليف تفسير يشمل سور القرآن جميعها ولكن السبب الحقيقى فيما نرى أنه كان قد كبرت سنه فهاله أن يفسر القرآن — الذى يرى أنه مؤسس على علمى المعانى والبيان — وأن من أراد التفسير فلتكن أولى أدواته فيه معرفة المعانى والبيان — هاله محاولة التفسير على هذا الأساس لأنها محاولة شاقة عسيرة تستلزم كثير وقت وجهد ، ولهذا فقد أملى على علماء المعتزلة الذين ألحوا عليه واستشفعوا بأسلافهم من علماء العدل والتوحيد مسألة فى الفواتح وطائفة من الكلام فى حقائق سورة البقرة ،وأجرى تفسيره على طريقه حوارية تفصيلية فيها السؤال والجواب وأراد له أن يكون منهجاً ينهجه من يريد التفسير ورسماً يتبعه من أوتى الأداة والجهد والوقت ، ويظهر أن مملاه التفسيرى طنت بمديحه البلاد فإنه لما رحل عن خوارزم إلى مكة فى جواره الثانى وجد ناساً فى البلاد التى اجتاز بها فى شوق للحصول على ما أملاه على علماء المعتزلة فى التفسير وحين بلغ مكة حدثه ابن وهاس أميرها أنه كان يحدث نفسه مدة غيبة الزمخشرى عن الحجاز — أن يفد عليه بخوارزم ليحصل على هذا المملى فى التفسير . فهز ذلك من عطفه وحرك ساكن نشاطه وأقبل يؤلف فى التفسير بنفس راضية وبعزم فتى متوثب ،فنى خياله أن الناس متطلعة إلى مصنف فى التفسير يمليه وقد شغفوا بنهجه فيه والحو روحى دينى لا يشغله فيه شاغل إلا التقرب إلى الله — وهو بعد لم يؤلف قبل فى التفسير تأليفاً كبيراً وقد أصبح الأمر الآن أمامه ممهداً بعد أن فسر فى مملى صغير ؛ وأصعب شىء البدء فيه؛ أما وقد بدأ التفسير ورضى الناس عنه فهين ما بعد ذلك. ولكن منذ أول الأمر وضع لنفسه خطة ؛ وهى ألا يسير

على تلك الطريقة التفصيلية المتوسعة التى سار عليها فى مملاه التفسيرى الأول بل أخذ فى طريقة أخصر وأوجز لأنه كان قد تجاوز الستين من عمره من ناحية ثم هو يبغى تفسير القرآن جميعه من ناحية أخرى والناس تنتظر ثمرة عمله من ناحية ثالثة، فحدا به ذلك كله إلى أن يوجز ما استطاع فى تفسيره . وهو يشرح لنا فى مقدمة التفسير ظروف تأليف « الكشاف » فيقول : « ولقد رأيت إخواننا فى الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية كلما رجعوا إلىّ فى تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب أفاضوا فى الاستحسان والتعجب واستطيروا شوقاً إلى مصنف يضم أطرافاً من ذلك حتى اجتمعوا إلىّ مقترحين أن أملى عليهم " الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل" فاستعفيت فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين وعلماء العدل والتوحيد، والذى حدانى على الاستعفاء على علمى أنهم طلبوا ما الإجابة إليه علىّ واجبة لأن الخوض فيه كفرض العين ما أرى عليه الزمان من رثاثة أحواله وركاكة رجاله وتقاصر هممهم عن أدنى عدد هذا العلم فضلا أن تترقى إلى الكلام المؤسس على علمى المعانى والبيان فأمليت عليهم مسألة فى الفواتح وطائفة من الكلام فى حقائق سورة البقرة وكان كلاماً مبسوطاً كثير السؤال والجواب طويل الذيول والأذناب وإنما حاولت به التنبيه على غزارة نكت هذا العلم وأن يكون لهم مناراً ينتحونه ومثالا يحتذونه . فلما صمم العزم على معاودة جوار الله والإناخة بحرم الله ، فتوجهت تلقاء مكة وجدت فى مجتازى بكل بلد من فيه مسكة من أهلها وقليل ماهم عطشى الأكباد إلى العثور على ذلك المملى متطلعين إلى إيناسه حراصاً على اقتباسه فهز ما رأيت من عطفى وحرك الساكن من نشاطى فلما حططت الرحل بمكة إذا أنا بالشعبة السنية من الدوحة الحسنية الأمير الشريف الإمام شرف آل رسول الله أبى الحسن على بن حمزة بن وهاس أدام الله مجده وهو النكتة والشامة فى بنى الحسن مع كثرة محاسنهم وجموم مناقبهم، أعطش الناس كبداً وألهبهم حشى وأوفاهم رغبة حتى ذكر أنه كان يحدث نفسه فى مدة غيبتى عن الحجاز مع تزاحم ما هو فيه

من المشادة بقطع الفيافي وطى المهامه والوفادة علينا بخوارزم ليتوصل إلى إصابة هذا الغرض فقلت: قد ضاقت على المستعفى الحيل وعيت به العلل ورأيتنى قد أخذت منى السن وتقعقع الشن وناهزت العشر التى سمتها العرب دقاقة الرقاب فأخذت فى طريقة أخصر من الأولى مع ضمان التكثير من الفوائد والفحص عن السرائر»[1].

ولما أخرج الزمخشري للناس مؤلفه هذا كان به فخوراً تياهاً يقول :

وناهيك بالكشاف كنزاً نضاره ... يعلم تمييز الجياد الصيارفا
وتخفق أوراق المصاحف هزةً ... لهن معان يزدهين المصاحفا
فما فى بلاد الشرق والغرب ناقد ... يقلبها دهراً فيخرج زائفا[2]

ويقول أيضاً :

ثم استوى الكشاف ثم على يدى ... متفحص عن سرة كشافْ
حسن الإبانة عن حقائق نظمه ... بفصوصه وعيونه عرافْ
من كل غمر من غمار علومه ... حاس بأوسع جفنه غرّاف
علما المعانى والبيان كلاهما ... طامى العباب كلجة الرجاف
هو صيرفى القول يفصل حكمه ... مياز بين الجزل والسفساف
وجد القرآن قرانه فتوافقا ... طبقاً إلى شن بغير خلاف[3]

(ب) مصادر الكشاف :

لم نر الزمخشري يشمخ بمؤلف له شموخه هذا بالكشاف الذى يحق أن نعده ممثلا لنضجه العلمى. ففيه يبدو الزمخشري رجلا هضم التفسير النقلى ووعى ما أثر فيه، كما روى الحديث وأتقنه، وأحاط خبراً بالمسائل الفقهية ودقيق الخلاف فيها، وألم إلماماً واسعاً بالقراءات وفروق ما بينها، كما اطلع على مجموعة ضخمة من الشعر والنثر . ويبين فيه الزمخشري أيضاً رجلا لغوياً مقتدراً ومتكلما منطيقاً

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣ .
(٢) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٧٨ .
(٣) نفس المرجع ورقة ٧٦ .

جدلا وذواقة مرهف الحسى لجمال النص القرآنى . وهذه الخصائص ولا شك وليدة ثقافته التى ثقفت حياته كلها ، فتفسيره انعكاس لما تمثله من هذه الثقافات وهمنا أن نكشف عن بعض المصادر التى رجع إليها وذكرها صراحة فى تفسيره حين فسر ، على أن غالب الكتب التى يذكرها كتب لغوية وأصحابها معتزلة فهو معتزلى حتى فى مظانه التى تردد إليها فى التفسير .

١ — مصادر التفسير :

(ا) تفسير مجاهد[١] (المتوفى سنة ١٠٤ هـ وقيل سنة ١٠٣ هـ)[٢] .

(ب) تفسير عمرو بن عبيد المعتزلى (المتوفى سنة ١٤٤ هـ) فهو ينقل عنه قراءات [٣] وتفاسير [٤] وإن كنا لا نعرف مصنفاً ذكرته كتب التراجم له .

(حـ) تفسير أبى بكر الأصم المعتزلى وكان معاصراً لأبى الهذيل العلاف (المتوفى سنة ٢٣٥ هـ) والزمخشرى يروى عن الأصم [٥] ويرد عليه[٦] .

(د) تفسير الزجاج (المتوفى سنة ٣١١هـ)[٧] وقد أفاد الزمخشرى من تفسير الزجاج شيئين : أولهما التفسير اللغوى للقرآن وثانيهما مجمل التفسير النقلى الذى صنفه الزجاج وهذا هو البيان .

يقول الزجاج فى تفسيره (معانى القرآن) : وقوله عز وجل (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق) [آية١٨سورة (ص)] والإشراق طلوع الشمس وإضاءتها يقال شرقت الشمس إذا طلعت وأشرقت إذا أضاءت وقد قيل إن شرقت وأشرقت بمعنى واحد والأول أكثر[٨] .

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٣٢٠ .
(٢) معجم الأدباء جـ ٢ ص ٧٨ .
(٣) الكشاف جـ ٢ ص ١٣٨ و جـ ١ ص ٥٧٢ .
(٤) الكشاف جـ ٢ ص ٨٣ ومواضع أخر .
(٥) الكشاف جـ ١ ص ٣٢٣ .
(٦) الكشاف جـ ١ ص ٥٥٧ .
(٧) الكشاف جـ ٢ ص ٧٣ .
(٨) مخطوط معانى القرآن للزجاج ورقة (١٩) .

والزمخشرى يعتمد على هذا التفسير اللغوى ، إذ يقول : والإشراق : ووقت الإشراق هو حين تشرق الشمس ، أى تضىء ويصفو شعاعها ، وهو وقت الضحى. وأما شروقها فطلوعها يقال شرقت الشمس ولما تشرق[١] وهذا تفسير لغوى للزجاج. وقوله عز وجل: (إذْ عُرِضَ عليه بالعشى الصافنات الجياد) [٣١ص] والصافنات: الخيل القائمة وقال أهل اللغة وأهل التقسيم أيضاً الصافن القائم الذى يثنى إحدى يديه أو إحدى رجليه يعنى حتى يقف بها على سنبكه وهو طرف الحافر ، ثلاث من قوائمه متصله بالأرض وقائمة يتصل بالأرض منها طرف حافرها فقط . قال الشاعر :

ألف الصفون فما يزال كأنه مما يقوم على الثلاث كسيرا

وقال بعضهم : الصافن القائم ثنى إحدى قوائمه أو لم يثنها ، والخيل أكثر ما تقف إذا وقفت صافنة لأنها كأنها تزاوج بين قوائمها[٢]

وينظر الزمخشرى إلى هذا التفسير فيقول : والصافن الذى فى قوله :

ألف الصفون فما يزال كأنه مما يقوم على الثلاث كسيرا

وقيل الذى يقوم على طرف سنبك يد أو رجل هو المتخيم وأما الصافن فالذى يجمع بين يديه[٣]. والزجاج يورد بعد الآراء الإعرابية فى قوله جل وعز : لا أقسمُ بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة) : [آيتا ١ و ٢ القيامة] لا اختلاف بين الناس أن معناه أقسم بيوم القيامة واختلفوا فى تفسير (لا) فقال بعضهم (لا) لغو وإن كانت فى أول السورة لأن القرآن كله كالسورة الواحدة لأنه متصل بعضه ببعض فجُعِلَت (لا) ها هنا بمنزلتها فى قوله : لئلا يعلم أهل الكتاب والمعنى لأن يعلم . وقال بعض النحويين (لا) رد الكلام كأنهم

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٢٧٨ .

(٢) معانى القرآن للزجاج ورقة ٩ .

(٣) الكشاف جـ ٢ ص ٢٨٣ و ٢٨٤ .

أنكروا البعث فقيل: لا ليس الأمر على ما ذكرتم ثم أقسم بيوم القيامة وقوله إنكم مبعوثون دل على الجواب[١].والزمخشرى يفصل فيما أورده الزجاج إذ يقول : إدخال (لا) النافية على فعل القسم مستفيض فى كلامهم وأشعارهم قال امرؤ القيس :

لا وأبيك ابنـة العـامرى لا يدعى القوم أنى أفـر

وقال غوية بن سلمى :

ألا نادت أمامة باحـتمال لتحزننى فلا بك ما أبالى

وفائدتها توكيد القسم وقالوا إنها صلة مثلها فى لئلا يعلم أهل الكتاب . وفى قوله: « فى بئر لا حور سرى وما شعر » واعترضوا عليه بأنها إنما تزاد فى وسط الكلام لا فى أوله وأجابوا بأن القرآن فى حكم سورة واحدة متصل بعضه ببعض والاعتراض صحيح لأنها لم تقع مزيدة إلا فى وسط الكلام ولكن الجواب غير سديد ألا ترى إلى امرئ القيس كيف زادها فى مستهل قصيدته والوجه أن يقال هى للنفى والمعنى فى ذلك أنه لا يقسم بالشىء إلا إعظاماً له يدلك عليه قوله تعالى: (فلا أقسم بمواقع النجوم. وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) [٧٥، ٧٦ الواقعة] فكأنه بإدخال حرف النفى يقول إن إعظامى له بإقسامى به كلا إعظام يعنى أنه يستأهل فوق ذلك وقيل إن لا نفى لكلام ورد له قبل القسم كأنهم أنكروا البعث فقيل لا ، أى ليس الأمر على ما ذكرتم ثم قيل أقسم بيوم القيامة[٢] .

والزجاج حين يقول فى الآية : (بلى قادرين) [٤ القيامة] المعنى بلى لنجمعهم قادرين . المعنى أقسم بيوم القيامة والنفس اللوامة لنجمعها قادرين على أن نسوى بنانه . وجاء فى التفسير بلى نقدر أن نجعله كخف البعير والذى هو أشكل بجمع العظام بلى نجمعها قادرين على تسوية بنانه على ما كانت وإن قل عظامها وصغرت وبلغ منها البلى[٣] . والزمخشرى نراه ينظر لقول الزجاج

---

(١) معانى القرآن للزجاج ورقة ١٧٤ .

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٥٠٧ .

(٣) معانى القرآن للزجاج ورقة ١٧٥ .

فى الآية السالفة فيقول : (قادرين) حال من الضمير فى نجمع أى نجمع العظام قادرين على تأليف جميعها وإعادتها إلى التركيب الأول إلى أن نسوى بنانه أى أصابعه التى هى أطرافه وآخر ما يتم به خلقه أو على أن نسوى بنانه ونضم سلامياته على صغرها ولطافتها بعضها إلى بعض كما كانت أولا من غير نقصان ولا تفاوت فكيف بكبار العظام . وقيل معناه بلى نجمعها ونحن قادرون على أن نسوى أصابع يديه ورجليه أى نجعلها مستوية شيئاً واحداً كخف البعير وحافر الحمار لا نفرق بينها فلا يمكنه أن يعمل بها شيئاً مما يعمل بأصابعه المفرقة ذات المفاصل والأنامل من فنون الأعمال والبسط والقبض والتأتى لما يريد من الحوائج[١].

والزجاج إذ يورد قراءات فى الآية : (فإذا برق البصرُ) [٧ القيامة] ويقرأ برق فمن قرأ برق فمعناه فزع وتحير ومن قرأ برَق فهو من برق يبرق من بريق العين[٢] . ونرى الزمخشرى يزيد فيها شيئاً إذ يقول (برق البصر) تحير فزعاً وأصله من برق الرجل إذا نظر إلى البرق فدهش بصره وقرئ برق من البريق أى لمع من شدة شخوصه وقرأ أبو السمال بلق إذا انفتح وانفرج يقال بلق الباب وأبلقته وبلقته فتحته[٣] .

ويقول الزجاج فى الآية: (يقول الإنسان يومئذ أين المفرّ) [١٠ القيامة] وتقرأ المفر بكسر الفاء فمن فتح فهو معنى أين الفرار ومن كسر فعلى معنى أين مكان الفرار . والمفعل من مثل جلست بفتح العين المصدر تقول جلست مجلساً بفتح اللام بمعنى جلوساً فإذا قلت جلست مجلِساً فأنت تريد المكان[٤].

والزمخشرى يوجز ما أورده الزجاج فيقول : المفر بالفتح المصدر، وبالكسر المكان، ويجوز أن يكون مصدراً كالمرجع وقرئ بهما[٥] .

---

(١) الكشاف ج ٢ ص ٥٠٧ و ٥٠٨ .
(٢) معانى القرآن للزجاج ورقة ١٧٥ .
(٣) الكشاف ج ٢ ص ٥٠٨ .
(٤) معانى القرآن للزجاج ورقة ١٧٥ .
(٥) الكشاف ج ٢ ص ٥٠٨ .

والزجاج حين يفسر الآيتين: (بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره) [١٤، ١٥ القيامة] يقول: معناه بل الإنسان تشهد عليه جوارحه، قال عز وجل: (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون)[٢٤ النور] وقال فى موضع آخر : (شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم)[٢٠ فصلت] وأعلم تعالى أن هذه الجوارح التى يتصرفون بها شواهد عليهم[١]، يوجز الزمخشرى بقوله : (بصيرة) حجة بينة وصفت بالبصارة على المجاز، كما وصفت الآيات بالإبصار فى قوله: (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة) أو عين بصيرة والمعنى أنه ينبأ بأعماله وإن لم ينبأ ففيه ما يجزئ عن الإنباء لأنه شاهد عليها بما عملت لأن جوارحه تنطق بذلك : يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون[٢].

والزجاج يقول : وقوله (لا تحرك به لسانك لتعجل به) [١٦ القيامة] كان جبريل عليه السلام إذا نزل بالوحى على النبى صلى الله عليه وسلم تلاه النبى عليه السلام كراهة أن يتفلت منه فأعلم الله تعالى أنه لا ينسيه إياه وأن يجمعه فى قلبه[٣] .

والزمخشرى ينظر إلى تفسير الزجاج فيقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لقن الوحى نازع جبريل القراءة ولم يصبر إلى أن يتمها مسارعة إلى الحفظ وخوفاً من أن يتفلت منه فأمر بأن يستنصت له ملقياً إليه بمابه وسمعه حتى يقضى إليه وحيه ثم يقفيه بالدراسة إلى أن يرسخ فيه[٤].

ويقول الزجاج مفسراً الآية : (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) [آية رقم ١ الإنسان] المعنى قد كان شيئاً إلا أنه كان تراباً وطيناً إلى أن نفخ فيه الروح فلم يكن قبل نفخ الروح فيه شيئاً مذكوراً . ويجوز أن يكون يعنى به جميع الناس ويكون أنهم كانوا نطفاً ثم علقاً ثم مضغاً

---

(١) معانى القرآن للزجاج ورقة ١٧٥ .
(٢) الكشاف للزمخشرى جـ ٢ ص ٥٠٨ .
(٣) معانى القرآن للزجاج ورقة ١٧٥ .
(٤) الكشاف جـ ٢ ص ٥٠٨ .

إلى أن صاروا شيئاً مذكوراً . ومعنى (هل أتى) قد أتى على الإنسان أى ألم يأت على الإنسان حين من الدهر[١].

وقد استفاد الزمخشرى من هذا التفسير إذ قال : « هل بمعنى قد فى الاستفهام خاصة والأصل أهل بدليل قوله : "أهل رأونا بسفح القاع ذى الأكم" فالمعنى أقد أتى على التقرير والتقريب جميعاً أى أتى على الإنسان قبل زمان قريب (حين من الدهر لم يكن) فيه (شيئاً مذكوراً) أى كان شيئاً منسيًّا غير مذكور نطفة فى الأصلاب ، والمراد بالإنسان جنس بنى آدم بدليل قوله : (إنا خلقنا الإنسان من نطفة . . .) [٢] » .

(٥) ومن التفاسير التى تأثرها الزمخشرى تفسير الرمانى (المتوفى سنة ٣٨٤ هـ) المسمى « بالتفسير الكبير للرمانى » ولم تبق لنا يد الزمن منه إلا جزء عم « من مقتنيات المكتبة التيمورية » ويظهر أن هذه النسخة تناولها شىء غير قليل من التحريف والتعديل . فصاحبها المعتزلى يبين سنيًّا قائلا بآراء أهل الحديث ، يقول فى الآية : (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون)[١٥ المطففين] لممنوعون والحجب المنع . قال الزجاج فى الآية دليل على أن المؤمنين يرون ربهم وإلا لا يكون التخصيص مفيداً . وقال الحسين بن الفضل : كما حجبهم فى الدنيا عن التوحيد حجبهم فى العقبى عن رؤيته . وقال مالك بن أنس : لما حجب أعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه . وقيل عن كرامة ربهم لأنهم فى الدنيا لم يشكروا نعمه فيشسوا فى الآخرة عن كرامته مجازاة . والأول أصح لأن الرؤية أقوى الكرامات فالحجب عنها دليل الحجب عن غيرها[٣] هو إذن مؤمن بالرؤية .

ويقول فى الآية : (فعّال لما يريد)[١٦ البروج] تكوينه فيكون فيه دلالة

---

(١) معانى القرآن للزجاج ورقة ١٧٦ .

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٥١٠ .

(٣) تفسير جزء عم للرمانى . مخطوطة بالمكتبة التيمورية ورقة ٥٧ .

خلق أفعال العباد[١] . فهو مؤمن بالجبر مخالف لرأى المعتزلة فى أن الإنسان ذو إرادة حرة مختارة .

وانظر كيف ترجرج بين السنية والمعتزلة، بين الجبر والإرادة الحرة إذ يقول : (والذى قدر فهدى) [٣ الأعلى] أى قدر لكل حيوان مايصلحه فهداه إليه وعرفه وجه الانتفاع به أو فهدى وأضل اكتفاء كقوله يضل من يشاء وقدر يهدى[٢] .

لهذا كله لسنا نطمئن تماماً إلى أن هذه النسخة بعينها نتاج صاحبها محرراً، وأيًّا ما كان فسنلمح بالمقارنة بين الكشاف والرمانى أن أولهما تأثر الثانى وسار على نهجه وهذا هو البيان :

يدير الرمانى حواراً عن الآية : الرحمن الرحيم فيقول : « فإن قلت : ما معنى جواز وصف الله تعالى بالرحمن ومعناها العطف والحنو ومنها الرحم لانعطافها على ما فيها ؟ قلت : هو مجاز عن إنعامه على عباده لأن الملك إذا عطف على رعيته ورق لهم أصابهم بمعروفه (. . .)[٣] فإن قلت : فلم قدم ما هو أبلغ من الوصفين على ما هو دونه والقياس الترقى من الأدنى إلى الأعلى كقولهم فلان عالم نحرير وشجاع باسل وجواد فياض ؟ قلت : كما قال الرحمن فتناول جلائل النعم وعظائمها وأصولها أردفها الرحيم كالتتمة والرديفة ليتناول ما دق منها ولطف[٤]. وهذا القول بنصه نجده فى الجزء الأول من تفسير الكشاف فى صفحته السادسة . وتفسير الرمانى الآية : (الحمد لله رب العالمين) فى الورقتين التاسعة والعاشرة من تفسيره لجزء عم هو بعينه ما نجده فى الجزء الثانى من تفسير الكشاف فى الصفحتين السادسة والسابعة . وتفسير الزمخشرى للآية : (إياك نعبد وإياك نستعين) المسطر فى كشافه المجلد الثانى فى صفحتيه الثامنة والتاسعة بنصه محرر فى تفسير جزء عم للرمانى فى الورقة الرابعة عشرة .

---

(١) تفسير جزء عم للرمانى . مخطوطة بالمكتبة التيمورية ورقة ٧٠ .

(٢) تفسير جزء عم للرمانى . مخطوطة بالمكتبة التيمورية ورقة ٧٤ و ٧٥ .

(٣) بعد هذه العبارة فى الكشاف : كما أنه إذا أدركته الفظاظة والقسوة عنف بهم ومنعهم خيره ومعروفه .

(٤) تفسير جزء عم للرمانى ورقة ٨ و ٩ .

وقول الرمانى فى الآية: (الذين أنعمت عليهم) هم المؤمنون وأطلق الإنعام ليشمل كل إنعام لأن كل من أنعم الله تعالى عليه بنعمة الإسلام لم تبق نعمة إلا أصابته واشتملت عليه، وعن ابن عباس هم أصحاب موسى قبل أن يغيروا وقيل هم الأنبياء[١] . وهذا النص بعينه نجده فى الجزء الثانى من تفسير الكشاف فى صفحته التاسعة .

وهنالك أمثلة أخرى غير ما قدمنا ولكنا نكتفى بما سقنا مشيرين إلى أنه يظهر أن عادة الأقدمين فى التأليف كانت النقل عمن يعجبون به دون إسناده لصاحبه إما لشهرة القول عنه أو لأن العلم ملك الجميع يؤخذ منه ما يؤخذ ويترك ما يترك ما دامت شخصية الناقل تسيطر على ما تنقل بعلمها ومعرفتها ولا تكتفى بتقليد أو نقل فحسب ، ولعل ابن تغرى بردى قد أنصف حين قال: إن الزمخشرى سلك مسلك الرمانى ونهج نهجه فى التفسير[٢] والحق أن الزمخشرى أفاد من تفسير الرمانى كما أفاد من تفسير الزجاج . فالرمانى يقول فى الآية: (مالك يوم الدين) قرئ : مَلك يوم الدين ومالك وملك بتخفيف اللام وقرأ أبو هريرة رضى الله عنه مالك بالنصب وغيره ملك وهو نصب على المدح ومنهم من قرأ مالكُ بالرفع ومَلك هو الاختيار لأنه قراءة أهل الحرمين ولقوله : (لمن الملك اليوم) ولقوله : (مَلك الناس) ولأن الملك يعم والملك يخص ويوم الدين يوم الجزاء . . .[٣]

والزمخشرى ينظر إلى الرمانى فى تفسيره فيقول : قرئ ملك يوم الدين ومالك ومَلك بتخفيف اللام وقرأ أبو حنيفة رضى الله عنه ملك يوم الدين بلفظ الفعل ونصب اليوم . وقرأ أبو هريرة رضى الله عنه مالك بالنصب وقرأ غيره مَلكَ وهو نصب على المدح ومنهم من قرأ مالكُ بالرفع ومَلكَ هو الاختيار لأنه قراءة أهل الحرمين ولقوله لمن الملك اليوم ولقوله ملك الناس ولأن الملك يعم والملك

---

(١) تفسير جزء عم للرمانى ورقتا ١٧ و ١٨ .

(٢) النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٦٨ . ط دار الكتب سنة ١٣٦١ هـ .

(٣) تفسير جزء عم للرمانى ورقة ١٢ .

يخص ويوم الدين يوم الجزاء . . . [١] .

والرمانى يفسر فيقول : (يوم ينظر المرء) [٤٠ النبأ] أى الكافر لقوله : إنا أنذرناكم عذاباً قريباً . (ما قدمت يداه) من الشر كقوله : ذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم. وتخصيص الأيدى لأن أكثر الأعمال يقع بها وإن احتمل ألا يكون للأيدى من دخل فيما ارتكب من الآثام[٢] .

ونلمح كيف أفاد الزمخشرى من هذا إذ يقول : (المرء) هو الكافر لقوله تعالى: (إنا أنذرناكم عذاباً قريباً) [٤٠ النبأ] والكافر ظاهر وضع موضع الضمير لزيادة الذم ويعنى (ما قدمت يداه) من الشر كقوله وذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ذلك بما قدمت يداك : بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين . وما يجوز أن تكون استفهامية منصوبة بقدمت أى ينظر أى شىء قدمت يداه وموصولة منصوبة بينظر يقال نظرته بمعنى نظرت إليه والراجع من الصلة محذوف وقيل المرء عام وخصص منه الكافر[٣].

والرمانى يفسر قائلا فى الآية : (ثم السبيل يسّره) [٢٠ عبس] نصب السبيل بإضمار يسره ثم سهل سبيل الخروج من بطن أمه أو بين له سبيل الخير والشر[٤].

والزمخشرى يقول مفيداً من الرمانى : نصب السبيل بإضمار يسر وفسره ييسر والمعنى ثم سهل سبيله وهو مخرجه من بطن أمه أو السبيل الذى يختار سلوكه من طريقى الخير والشر[٥].

وهذا تفسير الرمانى للآيتين : (يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه) [٣٤، ٣٥ عبس] لتبعات بينه وبينهم أو لاشتغاله بنفسه وصاحبته : زوجته . وبنيه : بدأ بالأخ ثم بالأبوين لأنهما (ثقة ... ؟)[٦] بالصاحبة والبنين لأنهم

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٨ .
(٢) تفسير جزء عم للرمانى ورقة ٢٨ .
(٣) الكشاف جـ ٢ ص ٥٢٠ .
(٤) تفسير جزء عم للرمانى ورقة ٤١ .
(٥) الكشاف جـ ٢ ص ٥٢٤ .
(٦) سقط بالأصل ولعل العبارة (وثنى) .

أحب . مثل أول من يفر من أخيه هابيل ومن أبيه إبراهيم ومن صاحبته نوح ولوط ومن ابنه نوح عليه السلام[١] .

وقد أفاد الزمخشرى بتفسير الرمانى فقال: (يفر) منهم لاشتغاله بما هو مدفوع إليه ولعلمه أنهم لا يغنون عنه شيئاً وبدأ بالأخ ثم بالأبوين لأنهما أقرب منه ثم بالصاحبة والبنين لأنهم أقرب وأحب كأنه قال يفر من أخيه بل من أبويه بل من صاحبته وبنيه . وقيل يفر منهم حذراً من مطالبتهم بالتبعات يقول الأخ لم تواسنى بمالك والأبوان قصرت فى برنا والصاحبة أطعمتنى الحرام وفعلت وصنعت والبنون لم تعلمنا ولم ترشدنا وقيل أول من يفر من أخيه هابيل ومن أبويه إبراهيم ومن صاحبته نوح ولوط ومن ابنه نوح[٢] .

(و) تفاسير العلويين . فهو يكثر من النقل عن على بن أبى طالب[٣] وعن جعفر الصادق[٤] وكثير غيرهم .

(ز) تفاسير الفرق المعادية للاعتزال كتفاسير المشبهة والمجبرة[٥] والخوارج[٦] وتفاسير الرافضة[٧] والمتصوفة[٨] وهو يسم هذه التفاسير بالبدعية .

٢ – مصادر الحديث :

لم يرد فى تفسير الزمخشرى – صراحة – غير ذكر صحيح مسلم[٩] وإن كان الكشاف منبئ أن صاحبه رجع إلى مصادر فى الحديث غير صحيح مسلم. فمن عادة الزمخشرى أن يسوق الحديث مسبوقاً بالعبارة (وفى الحديث) .

---

(١) تفسير جزء عم للرمانى ورقتا ٤٢ و ٤٣ .
(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٥٢٥ .
(٣) مثلا الكشاف جـ ٢ ص ٩٩ و جـ ١ ص ٦٧ و ١١٧ و ١٥٧ و ١٦٠ و ١٦١ إلخ .
(٤) الكشاف جـ ٢ ص ١٠١ و جـ ١ ١٨٤ و جـ ٢ ص ١٠٢ و ١١٦ و ٣١٥ .
(٥) الكشاف جـ ١ ص ٤٢٢ .
(٦) الكشاف جـ ١ ص ١٦١ الآية (أكفرتم . .) نقول فقهية عن الخوارج فى الكشاف جـ ١ ص ٢٥٧/٢ .
(٧) الكشاف جـ ١ ص ٥٣١ .
(٨) الكشاف جـ ١ ص ٤٩٢ .
(٩) الكشاف جـ ١ ص ٤٧ .

٣ ــ مصادر القراءات :

كانت أمام الزمخشري في القراءات مصاحف قراء وأمصار مختلفة منها :

(ا) مصحف عبد الله بن مسعود [١] .

(ب) مصحف الحرث بن سويد صاحب عبد الله[٢] .

(حـ) مصحف أبي[٣] .

(د) مصاحف أهل الحجاز والشام[٤].

(هـ) بعض المصاحف الأخرى كما نفهم من عبارته « وفي بعض المصاحف . . . »[٥] .

٤ ــ مصادر اللغة والنحو :

(ا) كتاب سيبويه الذي يستشهد الزمخشري به كثيراً [٦] بل يقدسه[٧].

(ب) إصلاح المنطق لابن السكيت[٨] (المتوفى سنة ٢٤٤ هـ) .

(جـ) الكامل للمبرد (المتوفى سنة ٢٨٥ هـ) [٩] .

(د) كتاب الكتاب المتمم في الخط والهجاء لعبد الله بن درستويه (المتوفى سنة ٣٤٧ هـ)[١٠] .

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٥٥ و ٥٩ و ٢٣٥ . . إلخ. وأحياناً يذكر (مصاحف أهل الكوفة .. مثلا الكشاف جـ ٢ ص ٨٠) وأحياناً مصاحف أهل العراق مثلا جـ ٢ ص ٣٤١ .

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٣٨٧ .

(٣) الكشاف جـ ١ ص ١٠٠ و ٣١٨ و ٣٩٨ و ٤١١ ومواضع أخر . .

(٤) الكشاف جـ ١ ص ٧٦ وأحياناً يذكر مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام جـ ٢ ص ٨٠ وأحياناً يقول مصاحف أهل المدينة والشام جـ ١ ص ١٦٧ .

(٥) الكشاف جـ ١ ص ٤٦٢ و ٤٩٠ و ٥١٠ .

(٦) الكشاف جـ ١ ص ١١ و ١٢ و ٢٨ الخ . ونقل نصاً منه بحاله جـ ٢ ص ٣٤٢ .

(٧) الكشاف جـ ١ ص ٣٤٥ .

(٨) نقده الزمخشري في الكشاف جـ ٢ ص ١٣٩.

(٩) الكشاف جـ ١ ص ٤٧٥ .

(١٠) الكشاف جـ ١ ص ١٣ .

(هـ) كتاب الحجة لأبى على الفارسى[١] (المتوفى سنة ٣٧٧ هـ) .

(و) كتاب الحلبيات لأبى على الفارسى[٢] .

(ز) كتاب التمام لابن جنى (المتوفى سنة ٣٩٢ هـ)[٣] .

(ح) كتاب المحتسب لابن جنى[٤] .

(ط) الإقليد وهو كتاب يظهر أنه لغوى وقد ورد ذكره مرتين فى الكشاف ولم نعثر له على صاحب[٥] .

(ى) التبيان لأبى الفتح الهمدانى[٦]

٥ ــ مصادر الأدب :

(ا) الحيوان للجاحظ[٧] .

(ب) حماسة أبى تمام[٨] .

(جـ) كتاب «استغفر واستغفرى» لأبى العلاء المعرى[٩] .

(د) بعض كتب الزمخشرى كنوابغ الكلم[١٠] وشافى العى من كلام الشافعى[١١] والنصائح الصغار[١٢] .

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ١١ .
(٢) الكشاف جـ ١ ص ٩٤ .
(٣) الكشاف جـ ٢ ص ٤ .
(٤) الكشاف جـ ٢ ص ١٦ .
(٥) الكشاف جـ ١ ص ٢١٧ و جـ ٢ ص ٥١٨ .
(٦) الكشاف جـ ٢ ص ٢١٢ و ٢٨٤ .
(٧) الكشاف جـ ٢ ص ١٤٢ .
(٨) الكشاف جـ ٢ ص ١٢٧ .
(٩) الكشاف جـ ١ ص ٢٦٢ .
(١٠) الكشاف جـ ١ ص ١٢٥ .
(١١) الكشاف جـ ١ ص ١٨٩ .
(١٢) الكشاف جـ ١ ص ١٨٢ .

٦ – مصادر الوعظ والأساطير :

(ا) بعض كتب الوعظ والتصوف[١] فهو ينقل أقوال المتصوفة الأول كشهر بن حوشب ورابعة البصرية[٢] وطاووس[٣] ومالك بن دينار[٤] .

(ب) بعض الكتب القصصية الأسطورية فهو مثلا يقول: « ومر بى فى بعض الكتب أن صنفاً من الملائكة لهم ستة أجنحة . . . إلخ »[٥] .

(ح) منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن :

طريقتنا هنا فى تناول منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن هى تبين ملامح شخصية الزمخشرى العلمية منعكسة من سلوكها فى تفسيره ، والشخصية العلمية كل لا يتجزأ فيها من الفطرة وفيها من الاكتساب إن علماً وثقافة أو تجربة وأحداثاً . وهى على كل حال تكوين معقد أشد تعقيد مركب أيما تركيب هذا شأن الشخصية العلمية فى ذات نفسها فكيف بالأمر إن حاولنا أن تتضح أمامنا صورة منها فى مرآة عمل علمى ؟ إن المهمة تصبح أشق وأدق . ونحن إذ نعالج الشخصية العلمية من مؤلف لها علمى فلن نستطيع أن نجزئ كل المركب فنقول هذا الجزء منها أدبى وذاك علمى وثالث دينى وهكذا لأنها ككل ذات عناصر متمازجة مختلطة متحدة ولكنا نفترض أن الشخصية العلمية التى نعالجها أشبه بالوجه تسلط عليه ريشة الرسام فمرة تبرز عينيه أدق إبراز ومرة تبرز أنفه وثالثة فمه وهكذا تنتقل بين أجزاء الوجه لا تغادر سمة من سماته أو خصيصة من خصائصه ، وأجزاء الوجه المصورة بعد مجموعة هى الوجه كله . وسبيلنا هنا هو سبيل ريشة الرسام فنسلط الضوء مرة على جانب من شخصية الزمخشرى العلمية المتعددة الجوانب ومرة

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ١٤٢ .
(٢) الكشاف جـ ١ ص ١٦٨ .
(٣) الكشاف جـ ١ ص ٣٢٦ .
(٤) الكشاف جـ ١ ص ٣٢٦ .
(٥) الكشاف جـ ٢ ص ٢٣٧ .

أخرى على جانب ثان فثالث وهكذا . وهذه الجوانب كلها مضمومة بعضها إلى بعض ممتزجة بعضها مع بعض هى شخصية الزمخشرى العلمية كما عكسها تفسيره إلينا ؛ وكما سلك هو بها سبيله فى التفسير .

وليكن الجانب الأول الذى نعنى بإبراز تقاسيمه وتقاطيعه هو شخصيته كمعتزلى مفكر إذ يتناول التفسير ، والجانب الثانى هو شخصيته كمفسر أثرى ، والجانب الثالث شخصيته كعالم لغوى ، ورابع الجوانب شخصيته كنحوى ، وخامسها كعالم بالقراءات واختلافها ، وليكن الجانب السادس شخصيته كفقيه ، والجانب السابع كأديب ، وثامن الجوانب شخصية الزمخشرى كمرب روحى يستهدف صلاح المجتمع .

أما عن شخصية الزمخشرى كمعتزلى فذلك جانب غلاب على كل الجوانب الأخرى فى تفسيره ظاهر عليها أشد ظهور . وهذا الجانب بعينه نحب أن نفرعه إلى فرعين ؛ أما أحدهما فهو التفكير العام ، وأما الثانى فهو الاعتزال الصرف . ذلك لأن المعتزلة آمنوا بالعقل وقدسوه ورفعوه فوق السمع ؛ فآثرنا أن نعرض للزمخشرى كرجل مؤمن بالعقل أولا دائن بمذهب الاعتزال ثانياً ، والناحيتان معاً تمثلان الزمخشرى المعتزلى المفسر .

الزمخشرى المفسر العقلى :

ما منزلة العقل عند الزمخشرى ؟ إنه كغيره من المعتزلة مؤمن بالعقل مقدس له يقول : « امش فى دينك تحت راية السلطان ولا تقنع بالرواية عن فلان وفلان . فما الأسد المحتجب فى عرينه أعز من الرجل المحتج على قرينه . وما العنز الجرباء تحت الشمأل البليل . أذل من المقلد عند صاحب الدليل »[1] ، لأن العقل قبل السمع والسمع منبه للعقل من غفلته ؛ يقول عند الآية : (وما

---

(١) ص ٤٦ (المقالة السابعة والثلاثون) من أطواق الذهب فى المواعظ والخطب للزمخشرى .

كنّا معذّبين حتى نبعث رسولا)[١] فإن قلت : الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسل لأن معهم أدلة العقل التى بها يعرف الله وقد أغفلوا النظر وهم متمكنون منه واستيجابهم العذاب لإغفالهم النظر فيما معهم، وكفرهم لذلك لا لإغفال الشرائع التى لا سبيل إليها إلا بالتوقيف والعمل بها لا يصح إلا بعد الإيمان ، قلت : بعثة الرسل من جملة التنبيه على النظر والإيقاظ من رقدة الغفلة لئلا يقولوا كنا غافلين فلولا بعثت إلينا رسولا ينبهنا على النظر فى أدلة العقل[٢] .

وفى معنى سبق العقل للشريعة يقول عند الآية : (ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان)[٣] فإن قلت : قد علم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان يدرى ما القرآن قبل نزوله عليه فما معنى قوله :(ولا الإيمان) والأنبياء لا يجوز عليهم إذا عقلوا وتمكنوا من النظر والاستدلال أن يخطئهم الإيمان بالله وتوحيده ، ويجب أن يكونوا معصومين من ارتكاب الكبائر ومن الصغائر التى فيها تنفير قبل المبعث وبعده فكيف لا يعصمون من الكفر ؟ قلت : الإيمان اسم يتناول أشياء بعضها الطريق إليه العقل وبعضها الطريق إليه السمع فعنى به ما الطريق إليه السمع دون العقل وذلك ما كان له فيه علم حتى كسبه بالوحى ، ألا ترى أنه قد فسر الإيمان فى قوله تعالى: (وما كان الله ليضيع إيمانكم)[٤] بالصلاة لأنها بعض ما يتناوله الإيمان[٥] وقد يرى العقل صواباً ثم يخطئه السمع يقول الزمخشرى فى الآية: (قال سلام عليك سأستغفرُ لك ربّى إنه كان بى حفيًّا)[٦] المتحدثة عن وعد إبراهيم أباه بالاستغفار له فإن قلت كيف جاز له أن يستغفر للكافر ويعده بذلك ؟ قلت : لقائل أن يقول إن الذى منع من الاستغفار للكافر إنما هو السمع فأما القضية العقلية فلا تأباه فيجوز أن يكون الوعد

---

(١) سورة الإسراء آية ١٥ .
(٢) الكشاف جـ ١ ص ٥٤٤ و ٥٤٥ .
(٣) سورة الشورى آية ٥٢ .
(٤) سورة البقرة آية ١٤٣ .
(٥) الكشاف جـ ٢ ص ٣٤٤ و ٣٤٥ .
(٦) سورة مريم آية ٤٧ .

بالاستغفار والوفاء به قبل ورود السمع بناء على قضية العقل[١] .

وقد تختلف الشرائع فى شىء العقل لا يأباه كالتصوير والنحت . يقول الزمخشرى فى الآية : (يعملون له ما يشاءُ من محاريبَ وتماثيلَ)[٢] فإن قلت كيف استجاز سليمان عليه السلام عمل التصاوير ؟ قلت هذا مما يجوز أن تختلف فيه الشرائع لأنه ليس من مقبحات العقل كالظلم والكذب[٣] .

والعقل عند الزمخشرى يسبق السنّة والإجماع والقياس ما دام يسبق السمع : يقول فى الآية (وتفصيل كل شىء)[٤] يحتاج إليه فى الدين لأنه القانون الذى تستند إليه السنة والإجماع والقياس بعد أدلة العقل[٥] .

هذه إذن هى مرتبة العقل عند المعتزلة وعند الزمخشرى ؛ والعقل آلة الزمخشرى حين يفسر يجول بها فى النص كاشفاً منقباً وهو لا يقنع بظاهر المعنى القرآنى الذى لا يعد شيئاً بجانب تدبره واستبطان معانيه ويقول هو عن تدبر القرآن: «وتدبر الآيات التفكر فيها والتأمل الذى يؤدى إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعانى الحسنة لأن من اقتنع بظاهر المتلو لم يحل منه بكثير طائل وكان مثله كمثل من له لقحة درور لا يحلبها ومهرة نثور لا يستولدها »[٦]

ولهذا نراه كثيراً ما يقف أمام النص القرآنى وقفه عقلية يبرزها فى صورة نقاش يبين فيه الجهد العميق الذى بذله مفكراً مستبطنا المعانى. يقول مثلا عند

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٩ .
(٢) سورة سبأ آية ١٣ .
(٣) الكشاف جـ ٢ ص ٢٢٧ .
(٤) سورة يوسف آية ١١١ .
(٥) الكشاف جـ ١ ص ٤٩٠ .
(٦) الكشاف جـ ٢ ص ٢٨٣ .

الآية: (أولئك الذين اشتروا الضلالةَ بالهُدى)[١] فإن قلت كيف اشتروا الضلالة بالهدى وما كانوا على هدى ؟ قلت جعلوا تمكنهم منه وإعراضهم عنه كأنه فى أيديهم فإذا تركوه إلى الضلالة فقد عطاوه واستبدلوها به ،ولأن الدين القيم هو فطرة الله التى فطر الناس عليها فكل من ضل فهو مستبدل خلاف الفطرة[٢]. وهو يتبع فى تأملاته العقلية هذه أحدث المناهج العلمية فيضع نصب عينيه كل احتمالات المعارضة والمحاجة فيما أمامه من نص يفسره ويناقشه . يقول فى الآية: (ويقتلون النبيين بغير الحق) [٣] فإن قلت قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير الحق فما فائدة ذكره ؟ قلت معناه أنهم قتلوهم بغير الحق عندهم لأنهم لم يقتلوا ولا أفسدوا فى الأرض فيقتلوا وإنما نصحوهم ودعوهم إلى ما ينفعهم فقتلوهم فلو سئلوا وأنصفوا من أنفسهم لم يذكروا وجهاً يستحقون به القتل عندهم[٤]. ويقف عند الآية : (وما كنتَ لديهم إذ يُلقون أقلامهم أيُّهم يكفل مريمَ وما كنتَ لديهمْ إذْ يختصمون)[٥] قائلا فإن قلت لم نفيت المشاهدة وانتفاؤها معلوم بغير شبهة وتَرَكَ نفى استماع الأنباء من حفاظها وهو موهوم ؟ قلت كان معلوماً عندهم علماً يقيناً أنه ليس من أهل السماع والقراءة وكانوا منكرين للوحى فلم يبق إلا المشاهدة وهى فى غاية الاستبعاد والاستحالة فنفيت على سبيل التهكم بالمنكرين للوحى مع علمهم بأنه لا سماع له ولا قراءة ونحوه: (وما كنتَ بجانب الغربىّ)[٦] (وما كنتَ بجانب الطور)[٧] (وما كنتَ لديهم إذْ أجْمَعُوا أمرهم)[٨] . ويقول فى الآية: (إن الذينَ كفروا بآياتنا سوفَ نُصْليهم ناراً كلَّما نَضِجت جلودهم بدلناهم جُلوداً غيرَها ليذُوقوا العذابَ إن اللهَ كان عزيزاً

---

(١) سورة البقرة آية ١٦ .
(٢) الكشاف جـ ١ ص ٣٠ .
(٣) سورة البقرة آية ٦١ .
(٤) الكشاف جـ ١ ص ٥٩ .
(٥) سورة آل عمران آية ٤٤ .
(٦) سورة القصص آية ٤٤ .
(٧) سورة القصص آية ٤٦
(٨) الكشاف جـ ١ ص ١٤٦ و ١٤٧ والآية رقم ١٠٢ سورة يوسف .

حكيماً)[١] فإن قلت : كيف تعذب مكان الجلود العاصية جاود لم تعص ؟ قلت العذاب للجملة الحساسة وهى التى عصت لا للجلد[٢]، وفى الآية (ولا تسبُّوا الذين يدعون من دُون الله فيسبوا الله عَدواً بغيْر علم)[٣] يقول : فإن قلت سب الآلهة حق وطاعة فكيف صح النهى عنه وإنما يصح النهى عن المعاصى ؟ قلت رب طاعة علم أنها تكون مفسدة فتخرج عن أن تكون طاعة فيجب النهى عنها لأنها معصية لا لأنها طاعة كالنهى عن المنكر هو من أجل الطاعات فإذا علم أنه يؤدى إلى زيادة الشر انقلب معصية[٤] . ويقف متأملا الآية : (قالوا ربّنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين)[٥] فيقول فإن قلت كيف صح أن يسمى خلقهم أمواتاً إماتة ؟ قلت كما صح أن تقول سبحان من صغر جسم البعوضة وكبر جسم الفيل وقولك للحفار ضيق فم الركية ووسع أسفلها وليس ثم نقل من كبر إلى صغر ولا من صغر إلى كبر ولا من ضيق إلى سعة ولا من سعة إلى ضيق وإنما أردت لإنشاء على تلك الصفات والسبب فى صحته أن الصغر والكبر جائزان معاً على المصنوع الواحد من غير ترجح لأحدهما وكذلك الضيق والسعة فإذا اختار الصانع أحد الجائزين وهو متمكن منهما على السواء فقد صرف المصنوع عن الجائز الآخر فجعل صرفه عنه كنقله منه[٦] .

ومع وقفاته العقلية هذه فإنه حيناً يقف أمام بعض الآى مبهوراً من القدرة الإلهية قد تقاصر عقله وتضاءل ، يقول عند الآية : (الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام)[٧] . وأما الداعى إلى هذا العدد أعنى الستة دون سائر الأعداد فلا نشك أنه داعى حكمة لعلمنا أنه لا يقدر تقديراً إلا بداعى حكمة وإن كنا لا نطلع عليه ولا نهتدى إلى معرفته ومن ذلك تقدير الملائكة الذين

(١) سورة النساء آية ٥٦ .
(٢) الكشاف جـ ١ ص ٢١١ .
(٣) سورة الأنعام آية ١٠٨ .
(٤) الكشاف جـ ١ ص ٣٠٧ .
(٥) سورة غافر آية ١١ .
(٦) الكشاف جـ ٢ ص ٣١١ .
(٧) سورة الفرقان آية ٥٩ .

هم أصحاب النار تسعة عشر وحملة العرش ثمانية والشهور اثنى عشر والسموات سبعاً والأرض كذلك والصلوات خمساً وأعداد النصب والحدود والكفارات وغير ذلك والإقرار بدواعى الحكمة فى جميع أفعاله وبأن ما قدره حق وصواب هو الإيمان وقد نص عليه فى قوله: (وما جعلنا أصحابَ النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتابَ ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتابَ والمؤمنون وليقولَ الذين فى قلوبهم مرضٌ والكافرون ماذا أراد اللهُ بهذا مثلا)[1] ثم قال (وما يعلم جنودَ ربك إلا هوَ)[2] وهو الجواب أيضاً فى أنه لم يخلقها فى لحظة وهو قادر على ذلك[3]. ويقول فى الآية: (ألم تر أن اللهَ يُسبحُ له من فى السموات والأرض والطّير صافات كلٌ قد علمَ صلاته وتسبيحهُ)[4] والصلاة الدعاء، ولا يبعد أن يلهم الله الطير دعاءه، وتسبيحه كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة التى لا يكاد العقلاء يهتدون إليها[5].

وحيناً آخر يشطح بعقله فيضع الرسل تحت مجهر العقل ناقداً لأنهم بشر[6] وتند منه عبارات لا تليق فى حق رسل الله. يقول مثلا فى الآية: (عفا اللهُ عنكَ)[7] كناية عن الجناية لأن العفو رادف لها ومعناه أخطأت وبئس ما فعلت[8]؛ وهذا منافٍ للأدب فى حق الرسول محمد.

ويقول فى حق النبى نوح فى الآية: (قال يا نوحُ إنه ليسَ من أهلكَ إنه عملٌ غيرُ صالح فلا تسألنى ما ليسَ لكَ به علمٌ إنى أعظك أن تكونَ من

(١، ٢) سورة المدثر آية ٣١.

(٣) الكشاف جـ ٢ ص ١١٣ و ١١٤.

(٤) سورة النور آية ٤١.

(٥) الكشاف جـ ٢ ص ٩٦.

(٦) يجارى الزمخشرى فى هذا بعض أسلافه من المعتزلة كالنظام الذى ينقد الخلفاء أبا بكر وعمر وعليا وجماعة من الصحابة. راجع ص ٢٤ — ٢٨ من تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة. ط كردستان العلمية سنة ١٣٢٦ هـ.

(٧) سورة التوبة آية ٤٣.

(٨) الكشاف جـ ١ ص ٣٩٦.

الجاهلين)[١] وجعل سؤال ما لا يعرف كنهه جهلا وغباوة ووعظه ألا يعود إليه وإلى أمثاله من أفعال الجاهلين[٢] .

إن هذه التعابير الجافية مظهر من مظاهر التطرف العقلى الذى لا يحتجزه حاجز والذى يعظم الهفوة إن صدرت من رسول اصطفاه الله .

ولقد كان طبيعة موقف المعتزلة كمرافعين عن الإسلام يقتضيهم التأمل العقلى للآى القرآنية وتلمس الوجوه المناصرة فيها للإسلام ذلك لأنه كلما كثرت الأدلة والاحتجاجات ارتبك الخصم أمامها، هذا إن هاجموا وانتصروا فإن هوجموا ومعهم الأدلة الكثيرة وفُل حد بعضها استطاعوا أن يستنصروا بالقوى لباقى بعد ذهاب ضعيفها. وقد ساعدهم على ذلك مرونتهم العقلية كمتكلمين جدلين درسوا الفلسفة والمنطق وكفصحاء ذوى دراية باللغة والنحو إلى هذا فهم قد استعرضوا ما سبقهم من تفاسير اختاروا منها ما لا يتعارض مع مذهبهم ثم أضافوا إليه كل جديد من نتاج فكرهم وتوارث ذلك معتزلى عن معتزلى .

وقد سار الزمخشرى وفق هذا الدستور الاعتزالى فنراه :

(١) يقلب الآية : (ويقيمون الصلاة)[٣] على وجوهها المعنوية المختلفة ؛ يقول ومعنى إقامة الصلاة تعديل أركانها وحفظها من أن يقع زيغ فى فرائضها وسننها وآدابها من أقام العود إذا قومه ؛ أو الدوام عليها والمحافظة عليها كما قال عز وعلا : (الذين هم على صلاتهم دائمون)[٤] (والذين هم على صلاتهم يحافظون)[٥] من قامت السوق إذا نفقت وأقامها . قال :

أقامت غزالة سوق الضراب لأهل العراقين حـــولا قميطا

لأنها إذا حوفظ عليها كانت كالشىء النافق الذى تتوجه إليه الرغبات ويتنافس فيه المحصلون. وإذا عطلت وأضيعت كانت كالشىء الكاسد الذى

---

(١) سورة هود آية ٤٦ .
(٢) الكشاف ج ١ ص ٤٤٤ .
(٣) سورة البقرة آية ٣ .
(٤) سورة المعارج آية ٢٣ .
(٥) سورة المعارج آية ٣٤ .

لا يرغب فيه ، أو التجلد والتشمر لأدائها وألا يكون فى مؤديها فتور عنها ولا توان من قولهم قام بالأمر وقامت الحرب على ساقها وفى ضده قعد عن الأمر وتقاعد عنه إذا تقاعس وتثبط . أو أداؤها فعبر عن الأداء بالإقامة لأن القيام بعض أركانها كما عبر عنه بالقنوت والقيام وبالركوع وبالسجود وقالوا سبح إذا صلى لوجود التسبيح فيها : (فلولا أنه كان من المسبحين)[١].

ويقول فى الآية : (وإذْ قتلتُم نفساً فادارأتم فيها)[٢] يفسرها الزمخشرى بقوله فاختلفتم واختصمتم فى شأنها لأن المتخاصمين يدرأ بعضهم بعضاً أى يدفعه ويزحمه . أو تدافعتم بمعنى طرح قتلها بعضكم على بعض فدفع المطروح عليه الطارح، أو لأن الطرح فى نفسه دفع ، أو دفع بعضكم بعضاً عن البراءة والتهمة [٣] .

وحيناً تكون الأوجه التفسيرية ناشئة عن تقليب معنى الآية على وجوهها المختلفة مضموماً إلى ذلك ما قيل فى الآية من تفاسير يعد ذكر الزمخشرى لها إجازة . آية: (وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان)[٤] يعنى الجامع بين كونه كتاباً منزلا وفرقاناً يفرق بين الحق والباطل يعنى التوراة كقولك رأيت الغيث والليث تريد الرجل الجامع بين الجود والجرأة ونحوه قوله تعالى: (ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكراً)[٥] يعنى الكتاب الجامع بين كونه فرقاناً وضياء وذكراً أو التوراة والبرهان الفارق بين الكفر والإيمان من العصا واليد وغيرهما من الآيات أو الشرع الفارق بين الحلال والحرام . وقيل الفرقان انفراق البحر وقيل النصر الذى فرق بينه وبين عدوه كقوله تعالى: (يوم الفرقان)[٦] يريد به يوم بدر[٧].

(ب) والزمخشرى يجول بعقله فى النسق المعنوى للآية الواحدة يبحث فى

---

(١) الكشاف ج ١ ص ١٨ والآية ١٤٣ من سورة الصافات .
(٢) سورة البقرة آية ٧٢ .
(٣) الكشاف ج ١ ص ٦٢ .
(٤) سورة البقرة آية ٥٣ .
(٥) سورة الأنبياء آية ٤٨ .
(٦) سورة الأنفال آية ٤١ .
(٧) الكشاف ج ١ ص ٥٧ .

تآلف معانى ألفاظها وتآخيها يقول مثلا فى الآية: (ومن الناس مَنْ يقولُ آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين)[١] فإن قلت كيف طابق قوله وما هم بمؤمنين قولهم آمنا بالله وباليوم الآخر والأول فى ذكر شأن الفعل لا الفاعل والثانى فى ذكر شأن الفاعل لا الفعل؟ قلت: القصد إلى إنكار ما ادعوه ونفيه فسلك فى ذلك طريقاً أدى إلى الغرض المطلوب وفيه من التوكيد والمبالغة ما ليس فى غيره وهو إخراج ذواتهم وأنفسهم من أن تكون طائفة من طوائف المؤمنين لما علم من حالهم المنافية لحال الداخلين فى الإيمان، وإذا شهد عليهم بأنهم فى أنفسهم على هذه الصفة فقد انطوى تحت الشهادة عليهم بذلك نفى ما انتحلوا إثباته لأنفسهم على سبيل البت والقطع[٢]. ويقول فى الآية: (يسئلونك ماذا ينفقون قُلْ ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل)[٣] فإن قلت كيف طابق الجواب السؤال فى قوله: (قل ما أنفقتم) وهم قد سألوا عن بيان ما ينفقون وأجيبوا ببيان المصرف؟ قلت قد تضمن قوله: (ما أنفقتم من خير) بيان ما ينفقونه وهو كل خير وبنى الكلام على ما هو أهم وهو بيان المصرف لأن النفقة لا يعتد بها إلا أن تقع موقعها قال الشاعر:

إن الصنيعة لا تكون صنيعة حتى يصاب بها طريق المصنع[٤]

ويقول فى الآية (وإن كُنتم مرضى أو على سَفرٍ أو جاء أحدٌ منكم من الغائط أو لامستُمُ النساءَ فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً)[٥]: فإن قلت كيف نظم فى سلك واحد بين المرضى والمسافرين وبين المحدثين والمجنبين، والمرض والسفر سببان من أسباب الرخصة والحدث سبب لوجوب الوضوء والجنابة سبب لوجوب الغسل؟ قلت أراد سبحانه أن يرخص للذين وجب عليهم التطهر وهم عادمون الماء فى التيمم بالتراب فخص أولا من بينهم مرضاهم وسَفرهم

(١) سورة البقرة آية ٨.
(٢) الكشاف جـ ١ ص ٢٤.
(٣) سورة البقرة آية ٢١٥.
(٤) الكشاف جـ ١ ص ١٠٢.
(٥) سورة النساء آية ٤٣.

لأنهم المتقدمون فى استحقاق بيان الرخصة لهم بكثرة المرض والسفر وغلبتهما على سائر الأسباب الموجبة للرخصة ثم عم كل من وجب عليه التطهر وأعوزه الماء لخوف عدو أو سبع أو عدم آلة استقاء أو إرهاق فى مكان لا ماء فيه وغير ذلك بما لا يكثر كثرة المرضى والسفر[١]. ويقول أيضاً فى الآية (قُل لعبادى الذين آمنوا يُقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية من قبل أن يأتى يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خلالٌ)[٢] فإن قلت : كيف طابق الأمر بالإنفاق وصف اليوم بأنه (لا بيع فيه ولا خلال) ؟ قلت من قبل إن الناس يخرجون أموالهم فى عقود المعاوضات فيعطون بدلا ليأخذوا مثله وفى المكارمات ومهاداة الأصدقاء ليستجروا بهداياهم أمثالها أو خيراً منها، وأما الإنفاق لوجه الله خالصاً كقوله: (وما لأحد عنده من نعمة تُجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى)[٣] فلا يفعله إلا المؤمنون الخلص فبعثوا عليه ليأخذوا بدله فى يوم لا بيع فيه ولا خلال أى لا انتفاع فيه بمبايعة ولا بمخالة ولا بما ينفقون فيه أموالهم من المعاوضات والمكارمات وإنما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه الله[٤] ويشير إلى الألفة بين الفاصلة ونسقها المعنوى فيقول فى الآى: (وإذا قيل لهم لا تُفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناسُ قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون)[٥] فإن قلت فلم فصلت هذه الآية بلا يعلمون والتى قبلها بلا يشعرون؟ قلت لأن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين على الحق وهم على الباطل يحتاج إلى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر المعرفة وأما النفاق وما فيه من البغى المؤدى إلى الفتنة والفساد فى الأرض فأمر دنيوى مبنى على العادات عند الناس خصوصاً عند العرب فى جاهليتهم وما كان قائماً بينهم من التغاور والتناحر

---

(١) الكشاف ج ١ ص ٢٠٨ .
(٢) سورة إبراهيم آية ٣١ .
(٣) سورة الليل آية ١٩ و ٢٠ .
(٤) الكشاف ج ١ ص ٥٠٨ .
(٥) سورة البقرة الآى من ١١ — ١٣ .

والتحارب والتحازب فهو كالمحسوس المشاهد ولأنه قد ذكر السفه وهو جهل فكان ذكر العلم معه أحسن طباقاً له[١].

ويقول فى الآيتين: (وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقرٌ ومستودعٌ قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون)[٢] فإن قلت لم قيل (يعلمون) مع ذكر النجوم و(يفقهون) مع ذكر إنشاء بنى آدم ؟ قلت كان إنشاء الإنس من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة ألطف وأدق صنعة وتدبيراً فكان ذكر الفقه الذى هو استعمال فطنة وتدقيق نظر مطابقاً له[٣].

(ح) نقطة أخرى فى منهجه العقلى فى التفسير . . . هى محاولة التوفيق بين معانى الآى القرآنية التى قد يظن بها اختلاف أو تناقض، ومن هذا الباب كان يلج الملحدون حينما يطعنون فى القرآن[٤].

فالزمخشرى هنا مدافع عن القرآن لا مفسر وحسب فالمعانى القرآنية كل متناسق متجاوب لا تناقض فيه أو اختلاف . والزمخشرى هنا يتعدى العناية بنسق الآية المعنوى إلى نسق القرآن المعنوى كله . يقول عند الآية (تلك حدودُ الله فلا تقربوها)[٥] فإن قلت كيف قيل فلا تقربوها مع قوله : (فلا تعتدوها) (ومَنْ يتعدّ حدودَ الله)[٦] ؟ قلت : من كان فى طاعة الله والعمل بشرائعه فهو متصرف فى حيز الحق فنهى أن يتعداه لأن من تعداه وقع فى حيز الباطل ثم بولغ فى ذلك فنهى أن يقرب الحد الذى هو الحاجز بين حيزى الحق والباطل لئلا يدانى الباطل وأن يكون فى الواسطة متباعداً عن الطرف فضلا عن أن

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٢٨ .
(٢) سورة الأنعام آيتا ٩٧ و ٩٨ .
(٣) الكشاف جـ ١ ص ٣٠٥ .
(٤) سيأتى الكلام فى فصل الإعجاز عن هذه المسألة .
(٥) سورة البقرة آية ١٨٧ .
(٦) سورة البقرة آية ٢٢٩ .

يتخطاه كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن لكل ملك حمى وحمى الله محارمه فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه » فالرتع حول الحمى وقربان حيزه واحد[١] ويقول عند الآية : (قد كانَ لكُم آيةٌ فى فئتين التقتا فئةٌ تُقاتلُ فى سبيل الله وأخرَى كافرَةٌ يَرَوْنهم مثليهم رأى العين)[٢] فإن قلت فهذا مناقض لقوله فى سورة الأنفال (ويقللكم فى أعينهم)[٣] قلت قللوا أولا فى أعينهم حتى اجترءوا عليهم فلما لاقوهم كثّروا فى أعينهم حتى غلبوا فكان التقليل والتكثير فى حالين مختلفتين، ونظيره من المحمول على اختلاف الأحوال قوله تعالى: (فيومئذ لا يسألُ عن ذنبه إنسٌ ولا جانٌ)[٤] وقوله تعالى: (وقفوهم إنهم مسئولون)[٥] وتقليلهم تارة وتكثيرهم أخرى أبلغ فى القدرة وإظهار الآية[٦]. ويقف عند الآية: (ولسليمانَ الريحَ عاصفةً تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها وكنا بكل شىء عالمين)[٧] قائلا — فإن قلت وصفت هذه الرياح بالعصف تارة وبالرخاوة أخرى فما التوفيق بينهما ؟ قلت : كانت فى نفسها رخية طيبة كالنسيم فإذا مرت بكرسيه أبعدت به فى مدة يسيرة على ما قال غدوها شهر ورواحها شهر فكان جمعها بين الأمرين أن تكون رُخاءً فى نفسها وعاصفة فى عملها مع طاعتها لسليمان وهبوبها على حسب ما يريد ويحتكم آية إلى آية ومعجزة إلى معجزة[٨]. وهو يحاول أن يوفق بين القرآن والحديث النبوى الصحيح، فالحديث مفسر للقرآن ومبين له يقول عند الآية : (ألم تر إلى الذين يُزَكون أنفسَهم بل اللهُ يُزَكّى من يشاءُ ولا يُظلمون فتيلا)[٩] فإن

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٩٢ و ٩٣ .
(٢) سورة آل عمران آية ١٣ .
(٣) سورة الأنفال آية ٤٤ .
(٤) سورة الرحمن آية ٣٩ .
(٥) سورة الصافات آية ٢٤ .
(٦) الكشاف جـ ١ ص ١٣٧ و ١٣٨ .
(٧) سورة الأنبياء آية ٨١ .
(٨) الكشاف جـ ٢ ص ٥١ .
(٩) سورة النساء آية ٤٩ .

قلت : أما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والله إنى لأمين فى السماء أمين فى الأرض » ؟ قلت إنما قال ذلك حين قال له المنافقون اعدل فى القسمة إكذاباً لهم إذ وصفوه بخلاف ما وصفه به ربه ، وشتان من شهد الله له بالتزكية ومن شهد لنفسه أو شهد له من لا يعلم[١] ؛ وفى الآية : (سيماهم فى وجوههم من أثر السجود)[٢] يقول فإن قلت فقد جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم « لا تقلبوا صوركم » وعن ابن عمر رضى الله عنه أنه رأى رجلا قد أثر فى وجهه السجود فقال إن صورة وجهك أنفك فلا تقلب وجهك ولا تشن صورتك ؟ قلت ذلك إذا اعتمد بجبهته على الأرض لتحدث فيه تلك السمة وذلك رياء ونفاق يستعاذ بالله منه ونحن فيما حدث فى جبهة السجاد الذى لا يسجد إلا خالصاً لوجه الله تعالى[٣].

والزمخشرى حينما يحاول التوفيق بين القرآن وأحداث السيرة النبوية يقول فى الآية : (والله يعصمك من الناس)[٤] فإن قلت : أين ضمان العصمة وقد شج فى وجهه يوم أحد وكسرت رباعيته صلوات الله عليه ؟ قلت المراد أنه يعصمه من القتل[٥] .

(د) نقطة ثالثة فى ذلك المنهج العقلى فى التفسير القرآنى وهى أن الزمخشرى وهو يقلب النص على وجوهه المعنوية المختلفة عنى باستخراج الدليل من القرآن وعدته العقل متبعاً فى ذلك الفقهاء حين يستنبطون الأحكام الفقهية من آى القرآن فمثلا يستخرج دليلا جغرافياً منطقياً لا تصدقه معارفنا الآن بل ولا حتى فى عصره من الآية (أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق . .) فيقول : وفيه أن السحاب من السماء ينحدر ومنها يأخذ ماءه ولا كزعم من يزعم أنه يأخذه من البحر ويؤيده قوله تعالى : (وينزل

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٢١٠ .
(٢) سورة الفتح آية ٢٩ .
(٣) الكشاف جـ ٢ ص ٣٨٨ .
(٤) سورة المائدة آية ٦٧ .
(٥) الكشاف جـ ١ ص ٢٦٨ .

من السماء من جبال فيها من برَد)[١] ويستخرج دليلا يخدم فن الجدل عند الآى (ألمْ تر إلى الذى حاجّ إبراهيمَ فى ربه أنْ آتاهُ اللهُ الملكَ إذ قال إبراهيمُ ربىَ الذى يُحيي ويُميتُ قال أنا أحيي وأميتُ قال إبراهيمُ فإن اللهَ يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهتَ الذى كفر) . . كان الاعتراض عتيداً ولكن إبراهيم لما سمع جوابه الأحمق لم يحاجه فيه ولكن انتقل إلى ما لا يقدر فيه على نحو ذلك الجواب ليبهته أول شيء. وهذا دليل على جواز الانتقال للمجادل من حجة إلى حجة[٢]. ويستخرج دليلا دينيًّا فى الخروج على أمراء الجور من الآية: (فإن تنازَعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول) فردوه إلى الله ورسوله أى ارجعوا فيه إلى الكتاب والسنة وكيف تلزم طاعة أمراء الجور وقد جنح الله الأمر بطاعة أولى الأمر بما لا يبقى معه شك وهو أن أمرهم أولا بأداء الأمانات وبالعدل فى الحكم وأمرهم آخراً بالرجوع إلى الكتاب والسنة فيما أشكل وأمراء الجور لا يؤدون أمانة ولا يحكمون بعدل ولا يردون شيئاً إلى كتاب ولا إلى سنة إنما يتبعون شهواتهم حيث ذهبت بهم فهم منسلخون عن صفات الذين هم أولو الأمر عند الله ورسوله وأحق أسمائهم اللصوص المتغلبة[٣].

بل لقد حاول أن يستخرج أدلة على أمور غيبية من القرآن وهذه شطحة عقلية فما كان للعقل أن يخترق حجب الغيب فيرى ما هنالك فيقول فى الآية: (ونادى أصحابُ النار أصحابَ الجنة أن أفيضوا علينا من الماء) فيه دليل على أن الجنة فوق النار[٤] ويقول فى الآية: (وكان عرشه على الماء) . . . وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل السماوات والأرض[٥] وفى الآيتين (ولله يسجدُ ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكةُ وهم لا يستكبرون . يخافون ربهم منْ فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) يقول — وفيه دليل على أن الملائكة

---

(١) الكشاف ج ١ ص ٥٤ — الآية الأولى ١٩ من سورة البقرة والثانية ٤٣ من سورة النور.
(٢) الكشاف ج ١ ص ١٢٢ والآية ٢٥٨ من سورة البقرة .
(٣) الكشاف ج ١ ص ٢١٢ والآية ٥٩ من سورة النساء .
(٤) الكشاف ج ١ ص ٣٣٠ والآية ٥٠ من سورة الأعراف .
(٥) الكشاف ج ١ ص ٤٣٦ الآية ٧ من سورة هود .

مكلفون مدارون على الأمر والنهى والوعد والوعيد كسائر المكلفين وأنهم بين الخوف والرجاء[١].

والزمخشرى هذا الذى حكم عقله فى آى القرآن ونفذ به إلى حجب الغيب يستخرج الدليل على صحة القياس العقلى فيقول فى الآية (ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون) وفى هذا دليل على صحة القياس حيث جعلهم فى ترك قياس النشأة الأخرى على الأولى[٢]. ويقول فى الآية : (فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى) وفى هذا حث عظيم على العمل بالدليل وزجر بليغ عن التقليد وإنذار بأن الهلاك والردى مع التقليد وأهاه[٣] . فهو يستخرج من القرآن البرهان على تقديس العقل .

الزمخشرى المفسر المعتزلى :

تلك إذن ناحية من شخصية الزمخشرى كمعتزلى ولكنها الناحية العقلية الخالصة التى لا تمس مبادئ ولا أصولا اعتزالية بل تدين أولا وقبل كل شىء بسلطان العقل وتستخدمه كآلة فى التفسير لها شأنها . أما الناحية الأخرى من شخصيته كمعتزلى فهى ناحية الاعتزال الصرف ،وفيها يبدو الزمخشرى مفسراً للقرآن ملتزماً بمبادئ الاعتزال. ينظر الزمخشرى إلى القرآن نظرة عامة فيجعل الآى المناصرة ظواهرها للمذهب الاعتزالى محكمة وتلك التى تخالفه متشابهة ثم يرد المتشابه إلى المحكم ليخضع تفسيرها للرأى الاعتزالى؛ وهذا النحو فى التفسير هو ما يعرف بالتأويل . يقول عند الآية: (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات)[٤]: محكمات أحكمت عبارتها بأن حفظت من الاحتمال والاشتباه . متشابهات مشتبهات محتملات . (هن

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٥٢٨ الآيتان ٤٩ و ٥٠ من سورة النحل .

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٤٣١ الآية ٦٢ من سورة الواقعة .

(٣) الكشاف جـ ٢ ص ٢٢ الآية ١٦ من سورة طه .

(٤) سورة آل عمران آية ٧ .

أم الكتاب) أى أصل الكتاب تحمل المتشابهات عليها وترد إليها . ومثال ذلك (لا تدركه الأبصارُ)[١] ؛ (إلى ربها ناظرةٌ)[٢] ، (لا يأمرُ بالفحشاء)[٣] (أمرْنا مُترفيها)[٤] . ونلحظ هنا أن المحكم من الآى فى رأيه يورده قبل المتشابه فالآية : (لا تدركه الأبصار) يعين ظاهرها المعتزلة على رأيهم فى أن الله لا يرى. والآية : (لا يأمر بالفحشاء) تظاهر رأى المعتزلة فى عدل الله فهو لا يفعل القبيح ولا يأمر به ، والآيتان بعد محكمتان أما الأخريان فمتشابهتان .

ويجعل الزمخشرى الآية : (ويَمدهمْ فى طغيانهم يعمهون)[٥] متشابهة ويقابلها بآية أخرى محكمة تخدم رأى المعتزلة فى أن الإرادة الإنسانية حرة مختارة فيقول : فإن قلت فكيف جاز أن يوليهم الله مدداً فى الطغيان وهو فعل الشياطين . ألا ترى إلى قوله تعالى: (وإخوانهم يمدونهم فى الغى)[٦] ؟ قلت إما أن يحمل على . . . وإما على أن يسند فعل الشيطان إلى الله لأنه بتمكينه وإقداره والتخلية بينه وبين إغواء عباده[٧] .

إن المعتزلة يرون أن عدل الله شاء ألا يمنح لطفه وتوفيقه إلا للمؤمن ، أما من ظل مصرًّا على الكفر فالله يخذله ؛ وقد يصدم هذا الرأى ظاهر الآية (أولئك الذين لم يُرد اللهُ أنْ يطهر قلوبهم)[٨] فيجعلها متشابهة ويرد معناها إلى معنى آيتين محكمتين ينصر ظاهرهما رأيه يقول: أولئك الذين لم يرد الله أن يمنحهم من ألطافه ما يطهر به قلوبهم لأنهم ليسوا من أهلها لعلمه أنها لا تنفع فيهم

---

(١) سورة الأنعام آية ١٠٣ .

(٢) سورة القيامة آية ٢٣ .

(٣) سورة الأعراف آية (٢٨) .

(٤) سورة الإسراء آية ١٦ والنص من الكشاف جـ ١ ص ١٣٦ .

(٥) سورة البقرة آية ١٥ .

(٦) سورة الأعراف آية ٢٠٢ .

(٧) الكشاف جـ ١ ص ٣٦ .

(٨) سورة المائدة آية ٤١ .

ولا تنجع (إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم اللهُ)[١] (كيفَ يهدى الله قوماً كفروا بعد إيمانهم)[٢] .

وإذا ما كانت الآى التى تنصر المعتزلة وآراءها محكمة وتلك التى يصدم ظاهرها المعتقد الاعتزالى متشابهة فإن رسالة التفسير عند المعتزلة أن يردوا — ما استطاعوا — الآى المتشابهات إلى المحكمة . ثم إن الآى المحكمة يدور تفسيرها حول هذه الأصول الخمسة التى يجملها الخياط أحد زعماء المعتزلة فى القرن الثالث فيقول : « وليس يستحق أحد منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة : التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فإذا كملت فيه هذه الخصال فهو معتزلى »[٣].

ومن ثم كان من الضرورى أن نعرف كيف حكم الزمخشرى خمسة الأصول فى التفسير القرآنى وكيف أدار معانى الآى عليها ، وسنتتبعه هنا فى أصل أصل نستقيه من تفسيره . وليكن أول الأصول :

١ — التوحيد :

اعتقد المسلمون جميعاً بهذا الأصل ولكن المعتزلة بلغوا فى تحلياه وفلسفته أقصى حد فالله (ليس كمثله شىء) والآى التى يوحى ظاهرها بالجسمية تؤول إلى ما يتفق وتنزيه الله عن الشبه بالخلق . فاستواء الله على العرش كناية عن الملك . يقول هذا الزمخشرى فى الآية (الرحمن على العرش استوى) [٥ طه] لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يردف الملك جعلوه كناية عن الملك فقالوا استوى فلان على العرش يريدون ملك وإن لم يقعد على السرير البتة ، وقالوه أيضاً لشهرته فى ذلك المعنى ومساواته ملك فى مؤداه وإن كان أشرح وأبسط وأدل على صورة الأمر[٤].

---

(١) سورة النحل آية ١٠٤ .
(٢) سورة آل عمران آية ٨٦ .
(٣) الانتصار ص ١٢٦ .
(٤) الكشاف ج ٢ ص ٢٠ .

ووجه الله ذاته : يقول الزمخشرى فى الآية (كل شىء هالكٌ إلا وجهه) [٨٨ القصص] إلا إياه والوجه يعبر به عن الذات[١] .

ويقول فى الآية (ويبقى وجه ربك) [٢٧ الرحمن] ذاته والوجه يعبر به عن الجمله والذات، ومساكين مكة يقولون أين وجه عربى كريم ينقذنى من الهوان[٢] .

ويد الله فى الآية (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون اللهَ يدُ الله فوق أيديهم) تخييل لمعنى أن عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله . يقول فى هذا الزمخشرى : لما قال : (إنما يبايعون الله) أكده تأكيداً على طريق التخييل فقال : (يد الله فوق أيديهم) يريد أن يد رسول الله التى تعلو أيدى المبايعين هى يد الله والله تعالى منزه عن الجوارح وعن صفات الأجسام وإنما المعنى تقرير أن عقدَ الميثاق مع الرسول كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما كقوله تعالى (من يُطع الرسولَ فقدْ أطاعَ اللهَ) [٨٠ النساء] والمراد بيعة الرضوان[٣] .

ويمين الله تعبير لتصوير العظمة . يقول الزمخشرى عن الله : ثم نبههم على عظمته وجلالة شأنه على طريقة التخييل فقال : (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطوياتٌ بيمينه) والغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه تصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله لا غير من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز[٤] ، وإذا انتفت الجسمية عن الله فهو سبحانه متعال عن المكان . يقول الزمخشرى فى الآية : (ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً) فإن قلت : تعالى الله عن المكان فكيف صح أن يقال وسع كل شىء ؟ قلت الرحمة والعلم هما اللذان وسعا كل شىء فى المعنى والأصل وسع كل شىء رحمتك وعلمك ولكن أزيل الكلام عن أصله بأن أسند

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ١٧٣ .
(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٤٢٥ .
(٣) الكشاف جـ ٢ ص ٣٨٣ .
(٤) الكشاف جـ ٢ ص ٣٠٥ (الآية ٦٧ من سورة الزمر) .

الفعل إلى صاحب الرحمة والعلم وأخرجا منصوبين على التمييز للإغراق فى وصفه بالرحمة والعلم كأن ذاته رحمة وعلم واسعان كل شىء[١].

وقرب الله من الإنسان مجاز عن قرب علمه منه . يقول الزمخشرى فى الآية: (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) مجاز والمراد قرب علمه منه وأنه يتعلق بمعلومه منه ومن أحواله تعلقاً لا يخفى عليه شىء من خفياته فكأن ذاته قريبة منه كما يقال والله فى كل مكان وقد جل عن الأمكنة[٢] .

والله المتنزه عن الجسمية من استجاز رؤيته فقد جعله من جملة الأجسام . يقرر الزمخشرى هذا فى قوله فى الآية: (وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقةُ وأنتم تنظرون) . . . وفى هذا الكلام دليل على أن موسى عليه الصلاة والسلام رادهم القول وعرفهم أن رؤية ما لا يجوز عليه أن يكون فى جهة محال وأن من استجاز على الله الرؤية فقد جعله من جملة الأجسام أو الأعراض فرادوه بعد بيان الحجة ووضوح البرهان ولجوا فكانوا فى الكفر كعبدة العجل فسلط الله عليهم الصَعقة كما سلط على أولئك القتل تسوية بين الكفرين ودلالة على عظمهما بعظم المحنة[٣] .

والأبصار لا تدرك الله لأنه ليس فى جهة أصلا ولا تابعاً كالأجسام والهيئات. وهكذا قول الزمخشرى فى الآية : (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) البصر هو الجوهر اللطيف الذى ركبه الله فى حاسة النظر به تدرك المبصرات . فالمعنى أن الأبصار لا تتعلق به ولا تدركه لأنه متعال أن يكون مبصراً فى ذاته لأن الأبصار إنما تتعلق بما كان فى جهة أصلا أو تابعاً كالأجسام والهيئات[٤].

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٣١٠ (الآية ٧ من سورة غافر) .
(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٤٠٢ (الآية ١٦ من سورة ق) .
(٣) الكشاف جـ ١ ص ٥٧ و ٥٨ (الآية ٥٥ البقرة) .
(٤) الكشاف جـ ١ ص ٣١٧ (الآية ١٠٣ الأنعام) .

إن إيمان حملة العرش من الملائكة دليل على عدم جواز رؤية الله لأنه إنما يوصف بالإيمان الغائب لا المشاهد يقول الزمخشرى فى الآية: (الذين يحملون العرش ومَنْ حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به) فإن قلت ما فائدة قوله: (ويؤمنون به) ولا يخفى على أحد أن حملة العرش ومن حوله من الملائكة الذين يسبحون بحمد ربهم مؤمنون . قلت . . . التنبيه على أن الأمر لو كان كما تقول المجسمة لكان حملة العرش ومن حوله مشاهدين معاينين ولما وصفوا بالإيمان لأنه إنما يوصف بالإيمان الغائب فلما وصفوا به على سبيل الثناء عليهم علم أن إيمانهم وإيمان من فى الأرض وكل من غاب عن ذلك المقام سواء فى أن إيمان الجميع بطريق النظر والاستدلال لا غير وأنه لا طريق إلى معرفته إلا هذا وأنه منزه عن صفات الأجرام[١]

والله تعالى المنزه عن كل مادة لا يُرى ولا به حاسة الرؤية . يقول الزمخشرى فى الآية: (لننظر كيف تعملون) فإن قلت كيف جاز النظر على الله تعالى وفيه معنى المقابلة ؟ قلت هو مستعار للعلم المحقق الذى هو العلم بالشىء موجوداً شُبِّه بنظر الناظر وعيان المعاين فى تحققه[٢].

وبعد فمجمل رأى المعتزلة فى التوحيد هو هذا أن الله واحد تام الأحدية ليس ذا أجزاء مقدارية كالتى للأجسام ولا أجزاء معنوية كما لأشخاصنا المركبة من ماهية وتشخيص [٣] ولكن ما القول فى صفات الله هل هى عين ذاته أو غير ذاته ؟ لو كان الله عالماً بعلم زائد على ذاته لكان هناك صفة وموصوف وهذه حال الأجسام والله منزه عن الجسمية فانتهى المعتزلة إلى القول بأن ذات الله وصفاته شىء واحد فالله قادر لذاته . هذا ما يقوله الزمخشرى فى الآية (أوَ لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة) . . . جاز أن يقال أقوى منهم على

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٣٠٩ (الآية ٧ غافر) .

(٢) الكشاف جـ ١ ص ٤١٨ (الآية ١٤ يونس) .

(٣) ضحى الإسلام جـ ٣ ص ٢٨ الطبعة الثانية . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٠ هـ - ١٩٤١ م .

معنى أنه يقدر لذاته على ما لا يقدرون عليه بازدياد قدرهم[١]. والله سميع عليم لذاته . يقول الزمخشري فى الآية : (يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم) السميع العليم لذاته[٢]. والله عالم لذاته . يقول فى الآية (ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض إن ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير) والإحاطة بذلك وإثباته وحفظه عليه يسير لأن العالم الذات لا يتعذر عليه ولا يمتنع تعلق بمعلوم[٣] .

ولكن ما معنى علم الله؟ إنه لا يجوز مقارنة علم الله بعلمنا لأن هناك فارقاً بين المتناهى واللامتناهى فعلم إنسان بشىء هو تغير طرأ عليه بعد سبق الجهل به وصفات الله عين ذاته وهو منزه عن التبدل والتغير لذلك فالله يعلم الشىء معدوماً ولا يعلمه موجوداً إلا إذا وجد . يقول الزمخشرى فى الآية (فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) فإن قلت كيف وهو عالم بذلك فيما لم يزل ؟ قلت لم يزل يعلمه معدوماً ولا يعلمه موجوداً إلا إذا وجد المعنى وليتميزن الصادق منهم من الكاذب[٤]. إن الزمخشرى يرمى من بعيد إلى حرية الإرادة ولكنه موهم فيما يتعلق بعلم الله .

ومما هو متصل بمسألة الصفات مسألة كلام الله وخلقه القرآن وهى قضية كان لها خطرها فى تاريخ المعتزلة فالمعتزلة ترى أن القرآن ليس صفة من صفات الله لأنه لو كان كلامه تعالى أزليًّا لوجب إثبات أمر ونهى وخبر واستخبار فى الأزل وهذه خصائص متباينة وصفات الله مردودة إلى ذاته ومحال أن يكون الواحد متنوعاً إلى خواص مختلفة قد تتضاد كما فى الأمر والنهى لهذا قالت المعتزلة بخلق القرآن، ودليل الزمخشرى هنا على خلق القرآن هو أن هذا القرآن معجز وإنما يكون العجز حيث تكون القدرة فالله قادر على خلق القرآن والعباد عاجزون

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٢٣٩ (الآية ١٥ فصلت) .

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٤٠ (الآية ٤ الأنبياء) .

(٣) الكشاف جـ ٢ ص ٦٧ (الآية ٧٠ الحج) .

(٤) الكشاف جـ ٢ ص ١٧٤ (الآية ٣ العنكبوت) .

عنه . يقول فى الآية (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) . . . والعجب من النوابت ومن زعمهم أن القرآن قديم مع اعترافهم بأنه معجز وإنما يكون العجز حيث تكون القدرة فيقال الله قادر على خلق الأجسام والعباد عاجزون عنه وأما المحال الذى لا مجال فيه للقدرة ولا مدخل لها فيه كثانى القديم فلا يقال للفاعل عجز عنه ولا هو معجز ولو قيل ذلك لجاز وصف الله بالعجز لأنه لا يوصف بالقدرة على المحال[١] .

أما كلام الله لرسله فيكون على ثلاثة أوجه لا تنافى رأى المعتزلة فى تنزيه الله عن الجسمية؛ يقول الزمخشرى فى الآية: (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه علىٌ حكيم) وما صح لأحد من البشر أن يكلمه الله إلا على ثلاثة أوجه: إما على طريق الوحى وهو الإلهام أو القذف فى القلب أو المنام كما أوحى إلى أم موسى وإلى إبراهيم عليه السلام فى ذبح ولده . . . وإما على أن يسمعه كلامه الذى يخلقه فى بعض الأجرام من غير أن يبصر السامع من يكلمه لأنه فى ذاته غير مرئى وقوله: (من وراء حجاب) مثل أى كما يكلم الملك المحتجب بعض خواصه وهو من وراء الحجاب فيسمع صوته ولا يرى شخصه وذلك كما كلم موسى ويكلم الملائكة؛ وإما على أن يرسل إليه رسولا من الملائكة فيوحى الملك إليه كما كلم الأنبياء غير موسى، وقيل وحياً كما أوحى إلى الرسل بواسطة الملائكة[٢].

٢ — العدل :

المسلمون جميعاً يعتقدون بعدل الله ولكن المعتزلة تعمقوا فى فهمه وأثاروا حوله مسائل أولاها أن الله يسير بالخلق إلى غاية وأن الله يريد خير ما يكون لخلقه . . . فعاقبة الدنيا هى الخير وهذا ما أراده الله وأما الشر فى الآخرة فمن

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٥٥٩ (الآية ٨٨ الاسراء) .

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٣٤٤ (الآية ٥١ الشورى) .

نتائج تحريف الكفار . حول ذلك المعنى يدور تفسير الزمخشرى المعتزلى للآية (وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون)[١] فيقول : وعاقبة الدار هى العاقبة المحمودة والدليل عليه قوله تعالى: (. . . أولئك لهم عقبى الدار. جنات عدن)[٢] وقوله: (. . . وسيعلم الكُفّار لمن عقبى الدار)[٣] والمراد بالدار الدنيا وعاقبتها وعقباها أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقى الملائكة بالبشرى عند الموت . فإن قلت . العاقبة المحمودة والمذمومة كلتاهما يصح أن تسمى عاقبة الدار لأن الدنيا إما أن تكون خاتمتها بخير أو بشر فلم اختصت خاتمتها بالخير بهذه التسمية دون خاتمتها بالشر ؟ قلت قد وضع الله سبحانه الدنيا مجازاً إلى الآخرة وأراد بعباده ألا يعملوا فيها إلا الخير وما خلقهم إلا لأجله ليتلقوا خاتمة الخير وعاقبة الصدق من عمل فيها خلاف ما وضعها الله له فقد حرف فإذا عاقبتها الأصلية هى عاقبة الخير وأما عاقبة السوء فلا اعتداد بها لأنها من نتائج تحريف الفجار[٤] .

وقد تفرعت من هذه المسألة نظريتان مشهورتان هما نظرية الصلاح والأصلح ونظرية الحسن والقبح العقليين . ومجمل رأى المعتزلة فى النظرية الأولى أن الله لما كانت أعماله معللة ويقصد منها إلى غاية وهى نفع العباد فالله يقصد فى أفعاله إلى صلاح العباد، ومن المعتزلة من قال بأنه يجب على الله أن يعمل ما فيه صلاح لعباده ومنهم من لم يكتف بذلك بل قال يجب رعاية ما هو الأصلح وجمهورهم على أنه يرعى ما هو الأصلح[٥] والزمخشرى المعتزلى فى تفسيره نراه مهتماً بتعليل أفعال الله وتقرير أنها كلها حكمة ومصلحة . يقول فى الآية (لا يُسألُ عما يفعل وهم يُسألون)[٦] إذا كانت عادة الملوك والجبابرة أن

---

(١) سورة القصص آية ٣٧ .
(٢) سورة الرعد آيتا ٢٢ و ٢٣ .
(٣) سورة الرعد آية ٤٢ .
(٤) الكشاف ج ٢ ص ١٦٢ و ١٦٣ .
(٥) ضحى الإسلام لأحمد أمين ج ٣ ص ٤٥ .
(٦) سورة الأنبياء آية ٢٣ .

لا يسألهم من فى مملكتهم عن أفعالهم وعما يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم تهيباً وإجلالا مع جواز الخطأ والزلل وأنواع الفساد عليهم كان ملك الملوك ورب الأرباب خالقهم ورازقهم أولى بأن لا يسأل عن أفعاله مع ما علم واستقر فى العقول من أن ما يفعله كله مفعول بدواعى الحكمة ولا يجوز عليه الخطأ ولا فعل القبائح[١].

وإذا ما كانت أفعال الله غايتها نفع العباد ومصلحتهم فقد راح الزمخشرى يعلل لأفعال الله وخاصة فى بعض الآى التى قد يناقض ظاهرها هذه الفكرة عن أفعال الله . فلم خلق الله العجل من الحلى؟ أليضل بنى إسرائيل أم ليمتحنهم فيثيت من اهتدى ويثبت ويعاقب من أساء وضل ؟ عن هذا يجيب الزمخشرى فى نقاشه الذى يقول فيه: فإن قلت فلم خلق الله العجل من الحلى حتى صار فتنة لبنى إسرائيل وضلالا ؟ قلت ليس بأول محنة محن الله بها عباده ليثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين، ومن عجب من خلق العجل فليكن من خلق إبليس أعجب[٢] . والله حين نهى نوحاً عن أن يدعو لقومه بالنجاة فلما عرف الله من أن المصلحة فى إغراقهم بعد أن أملى الله لهم فازدادوا على الأيام ضلالا يقرر هذا الزمخشرى فى الآية (. . . ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون)[٣] بقوله فإن قلت لم نهاه عن الدعاء لهم بالنجاة ؟ قلت لما تضمنته الآية من كونهم ظالمين وإيجاب الحكمة أن يغرقوا لا محالة لما عرف من المصلحة فى إغراقهم والمفسدة فى استبقائهم وبعد أن أملى لهم الدهر المتطاول فلم يزيدوا إلا ضلالا ولزمتهم الحجة البالغة لم يبق إلا أن يجعلوا عبرة للمعتبرين[٤] .

والله قد غلب الفقر على الغنى للمصلحة إذ لو وسع على الكافرين لأطبق الناس على الكفر ولو وسع على المسلمين لأجمع الناس على الإسلام لأجل

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٤٣ .
(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٣٢ .
(٣) سورة هود آية ٣٧ .
(٤) الكشاف جـ ٢ ص ٧٢ .

الدنيا ومن يدخل الدين لأجل الدنيا فهو منافق.حول هذه المعانى يدور تفسير الزمخشرى للآى: (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سُقُفاً من فضة ومعارجَ عليها يَظهرُون . ولبيوتهم أبواباً وسُرُراً عليها يتكئون . وزخرُفاً وإنْ كلُّ ذلك لمّا متاعُ الحياة الدنيا والآخرةُ عند ربك للمتقين)[١] فيقول فإن قلت فحين لم يوسع على الكافرين للفتنة التى كان يؤدى إليها التوسعة عليهم من إطباق الناس على الكفر لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام ؟ قلت التوسعة عليهم مفسدة أيضاً لما تؤدى إليه من الدخول فى الإسلام لأجل الدنيا والدخول فى الدين لأجل الدنيا من دين المنافقين فكانت الحكمة فيما دبر حيث جعل فى الفريقين أغنياء وفقراء وغلب الفقر على الغنى[٢].

كما أن الله لا يجيب المضطر حين يدعوه إلا إذا كان فى دعائه مصلحة . يقول هذا الزمخشرى فى الآية: (أمن يجيب المضطر إذا دعاه . . .)[٣] فإن قلت قد عم المضطرين بقوله يجيب المضطر إذا دعاه وكم من مضطر يدعوه فلا يجاب ؟ قلت الإجابة موقوفة على أن يكون المدعو به مصلحة ولهذا لا يحسن دعاء العبد إلا شارطاً فيه المصلحة وأما المضطر فمتناول للجنس مطلقاً يصلح لكله ولبعضه فلا طريق إلى الجزم على أحدهما إلا بدليل وقد قام الدليل على البعض وهو الذى إجابته مصلحة فبطل التناول على العموم[٤].

وإذا كانت هناك بعض الآى التى يستطيع الزمخشرى فيها أن يكشف عن حكمة فعل الله فإن هناك آياً يغمض عليه فيها أن يعلل لحكمة الله فى فعله — غير أن هناك فكرة عامة خلص إليها المعتزلة وهى أن الله لا يفعل إلا ما فيه صلاح عباده وإذن فخلق الله لفاعل القبيح فيه حكمة ومصلحة — وإن خفيت علينا هذه المصلحة أو الحكمة . لننظر قول الزمخشرى فى هذه الآية: (هو الذى خلقكم

(١) سورة الزخرف الآى من ٣٣ — ٣٥ .
(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٣٥١ .
(٣) سورة النمل آية ٦٢ .
(٤) الكشاف جـ ٢ ص ١٤٩ .

فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير)[١] فإن قلت نعم إن العباد هم الفاعلون للكفر ولكن قد سبق فى علم الحكيم أنه إذا خلقهم لم يفعلوا إلا الكفر ولم يختاروا غيره فما دعاه إلى خلقهم مع علمه بما يكون منهم ؟ وهل خلق القبيح وخلق فاعل القبيح إلا واحد؟ وهل مثله إلا مثل من وهب سيفاً باتراً لمن شهر بقطع السبيل وقتل النفس المحرمة فقتل به مؤمناً ؟ أما يطبق العقلاء على ذم الواهب وتعنيفه والدق فى فروته كما يذمون القاتل بل إنحاؤهم باللوائم على الواهب أشد ؟ قلت قد علمنا أن الله حكيم عالم بقبح القبيح عالم بغناه عنه فقد علمنا أن أفعاله كلها حسنة وخلق فاعل القبيح فعله فوجب أن يكون حسناً وأن يكون له وجه حسن وخفاء وجه الحسن علينا لا يقدح فى حسنه كما لا يقدح فى حسن أكثر مخلوقاته جهلنا بداعى الحكمة إلى خلقها[٢] .

وأما النظرية الثانية نظرية الحسن والقبح العقليين فلب رأى المعتزله فيها هو هذا: أن الحسن والقبح فى الأشياء ذاتيان والشرع فى تحسينه وتقبيحه للأشياء مخبر عنها لا مثبت لها والعقل مدرك لها لا منشئ[٣] إلا أن الشرع يكشف ما غمض على العقل كما أنه حجة الله على الناس . يقرر الزمخشرى بعض هذه المعانى فى الآية (وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون . . .)[٤] بقوله يعنى ما أمر الله باتقائه واجتنابه كالاستغفار للمشركين وغيره مما نهى الله عنه وبين أنه محظور لا يؤاخذ به عباده الذين هداهم للإسلام ولا يسميهم ضلالا ولا يخذلهم إلا إذا أقدموا عليه بعد بيان حظره عليهم وعلمهم بأنه واجب الاتقاء والاجتناب وأما قبل العلم والبيان فلا سبيل عليهم كما لا يؤاخذون بشرب الخمر ولا ببيع الصاع بالصاعين قبل التحريم وهذا بيان لعذر من خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين قبل ورود النهى عنه والمراد بما يتقون ما يجب اتقاؤه للنهى

---

(١) الكشاف ج ٢ ص ٤٦٣ .

(٢) سورة التغابن آية ٢ .

(٣) انظر منزلة العقل عند المعتزلة ص ٩٣ وما بعدها من هذا البحث .

(٤) سورة التوبة آية ١١٥ .

فأما ما يعلم بالعقل كالصدق فى الخبر ورد الوديعة فغير موقوف على التوقيف[١].

ومهمة الرسل ليست إلا تنبيه العقل من غفلته وتعليم الشرائع ، والرسل بعدُ حجة الله على الناس . الزمخشرى يقول فى الآية : (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . . .)[٢] فإن قلت كيف يكون للناس على الله حجة قبل الرسل وهم محجوجون بما نصبه الله من الأدلة التى النظر فيها موصل إلى المعرفة والرسل فى أنفسهم لم يتوصلوا إلى المعرفة إلا بالنظر فى تلك الأدلة ولا عرف أنهم رسل الله إلا بالنظر فيها ؟ قلت الرسل منبهون عن الغفلة وباعثون على النظر كما ترى علماء أهل العدل والتوحيد مع تبليغ ما حملوه من تفصيل أمور الدين وبيان أحوال التكليف وتعليم الشرائع فكان إرسالهم إزاحة للعلة وتتميماً لإلزام الحجة لئلا يقولوا لولا أرسلت إلينا رسولا فيوقظنا من سنة الغفلة وينبهنا لما وجب الانتباه له[٣].

ورسول الله محمد صلى الله عليه وسلم نهى أولا بأدلة العقل عن عبادة الأوثان ثم قوّيها بعد أدلة السمع ، هذا ما يقوله الزمخشرى فى الآية (قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى وأمرتُ أن أسلمَ لرب العالمين)[٤] فإن قلت أما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبادة الأوثان بأدلة العقل حتى جاءته البينات من ربه ؟ قلت بلى ولكن البينات لما كانت مقوية لأدلة العقل ومؤكدة لها ومضمنة ذكرها نحو قوله تعالى: (أتعبدون ما تنحتون . والله خلقكم وما تعملون)[٥] وأشباه ذلك من التنبيه على أدله العقل كان ذكر البينات ذكراً لأدلة العقل والسمع جميعاً وإنما ذكر ما يدل على الأمرين جميعاً لأن ذكر تناصر الأدلة أدلة العقل وأدلة السمع أقوى فى إبطال

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٤١٢ .

(٢) سورة النساء آية ١٦٥ .

(٣) الكشاف جـ ١ ص ٢٤٠ .

(٤) سورة غافر آية ٦٦ .

(٥) سورة الصافات آيتا ٩٥ و ٩٦ .

مذهبهم وإن كانت أدلة العقل وحدها كافية[١]

وكل شيء خلقه الله فهو فى حكم العقل مباح الانتفاع به إلا أن يجيء الشرع فيحظره . هذا ما يقوله الزمخشرى عند الآية: (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً . . .)[٢] . . وقد استدل بقوله خلق لكم على أن الأشياء التى يصح أن ينتفع بها ولم تجر مجرى المحظورات فى العقل خلقت فى الأصل مباحة مطلقاً لكل أحد أن يتناولها ويستنفع بها [٣] . ثم أخذ الزمخشرى يمثل لما قبح فى العقل أو حسن فيبين أن نقصان الكيل قبيح فى ذاته بإدراك العقل وإيفاء الكيل حسن فى ذاته بإدراك العقل فلنر قوله فى الآية (ويا قوم أوفوا المكيالَ والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءَهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين)[٤] فإن قلت النهى عن النقصان أمر بالإيفاء فما فائدة قوله أوفوا ؟ قلت نهوا أولا عن عين القبيح الذى كانوا عليه من نقص المكيال والميزان لأن فى التصريح بالقبيح نعياً على المنهى وتعييراً له ثم ورد الأمر بالإيفاء الذى هو حسن فى العقول مصرحاً بلفظه لزيادة ترغيب فيه وبعث عليه[٥].

وهؤلاء قوم صالح أرادوا مقتله فاحتالوا على عرض خبر قتله فى صورة تظهرهم بمظهر الصادقين وهذا دليل — كما يرى الزمخشرى — على أن الكذب قبح فى ذاته استقبحه الكفرة وهم لا يعرفون الشرع ولا نواهيه، هذا قول الزمخشرى فى الآية: (قالوا تقاسمُوا بالله لنبيتَنّه وأهلهُ ثم لنقولنّ لوليه ما شهدنا مَهْلِكَ أهله وإنا لصادقوُن)[٦] فإن قلت كيف يكونون صادقين وقد جحدوا ما فعلوا فأتوا بالخبر على خلاف المخبر عنه ؟ قلت كأنهم اعتقدوا أنهم إذا بيتوا صالحاً وبيتوا أهله فجمعوا بين البياتين ثم قالوا : ما شهدنا مهلك أهله ،

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٣٢١ .
(٢) سورة البقرة آية ٢٩ .
(٣) الكشاف جـ ١ ص ٥٠ .
(٤) سورة هود آية ٨٥ .
(٥) الكشاف جـ ١ ص ٤٥١ .
(٦) سورة النمل آية ٤٩ .

فذكروا أحدهما، كانوا صادقين لأنهم فعلوا البياتين جميعاً لا أحدهما وفى هذا دليل قاطع على أن الكذب قبيح عند الكفرة الذين لا يعرفون الشرع ونواهيه ولا يخطر ببالهم ألا ترى أنهم قصدوا قتل نبي الله ولم يرضوا لأنفسهم بأن يكونوا كاذبين حتى سووا للصدق فى خبرهم حيلة يتفصون بها عن الكذب[١] .

وثانية المسائل التى اعتقدها المعتزلة فى عدل الله مسألة أن الله لا يريد الشر ولا يأمر به فقد أراد ما كان من الأعمال خيراً أن يكون وما كان شراً ألا يكون وما لم يكن خيراً ولا شراً فهو تعالى لا يريده ، ويكرهه . وإذا كان الله يريد من عباده الخير فليس هذا يعنى أنهم مجبرون على هذا الخير بل لإرادتهم حرة طليقة فى إتيانه، فلننظر ما يقول الزمخشرى فى الآية: (يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون)[٢] قوله خلقكم لعلكم تتقون لا يجوز أن يحمل على رجاء الله تقواهم لأن الرجاء لا يجوز على عالم الغيب والشهادة وحمله على أن يخلقهم راجين للتقوى ليس بسديد أيضاً ولكن لعل واقعة فى الآية موقع المجاز لا الحقيقة لأن الله عز وجل خلق عباده ليتعبدهم بالتكليف وركب فيهم العقول والشهوات وأزاح العلة فى إقدارهم وتمكينهم وهداهم النجدين ووضع فى أيديهم زمام الاختيار وأراد منهم الخير والتقوى فهم فى صورة المرجو منهم أن يتقوا ليترجح أمرهم وهم مختارون بين الطاعة والعصيان كما ترجحت حال المرتجى بين أن يفعل وألا يفعل ومصداقه قوله عز وجل (. .. ليبلوكم أيكم أحسن عملا . .)[٣] وإنما يبلو ويختبر من تخفى عليه العواقب ولكن شبه بالاختبار بناء أمرهم على الاختيار[٤] .

والله لا يشاء الشرك والمعاصى إذ هى فعل الناس بقصدهم وإرادتهم واختيارهم

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ١٤٧ .

(٢) سورة البقرة آية ٢١ .

(٣) سورة الملك آية ٢ .

(٤) سورة النحل آية ٣٥ .

بدليل زجره الناس عنها وإبعادهم عليها، هذه المعانى يفسر بها الزمخشرى الآية: (. . . فهل على الرُّسُل إلا البلاغ المبين)[١] بقوله فهل على الرسل إلا أن يبلغوا الحق وأن الله لا يشاء الشرك والمعاصى بالبيان والبرهان ويطلعوا على بطلان الشرك وقبحه وبراءة الله تعالى من أفعال العباد وأنهم فاعلوها بقصدهم وإرادتهم واختيارهم والله تعالى باعثهم على جميلها وموفقهم له وزاجرهم عن قبيحها وموعدهم عليه[٢].

إن الله يريد شيئاً والعبد يريد خلافه فالله يريد من الكفار أن يؤمنوا وهم لا يرجعون عن كفرهم لأنهم أحرار الإرادة هذا ما يقوله الزمخشرى فى الآية (. . . وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون)[٣] فإن قلت لو أراد رجوعهم لكان . قلت: إرادته فعل غيره ليس إلا أن يأمره به ويطلب منه إيجاده فإن كان ذلك على سبيل القسر وجد وإلا دار بين أن يوجد وبين ألا يوجد على حسب اختيار المكلف وإنما لم يكن الرجوع لأن الإرادة لم تكن قسراً ولم يختاروه[٤]. وإبليس أمره الله بالسجود فأبى وغوى وما كان الله يريد من سجوده إلا الخير ولكن إبليس اختار الغواية يقول هذا الزمخشرى فى الآية: (قال رب بما أغويتنى لأزينَنَّ لهم فى الأرض ولأغْوِيَنَّهم أجمعين)[٥] ومعنى إغوائه إياه تسبيبه لغيه بأن أمره بالسجود لآدم عليه السلام فأفضى ذلك إلى غيه وما الأمر بالسجود إلا حسن وتعريض للثواب بالتواضع والخضوع لأمر الله ولكن إبليس اختار الإباء والاستكبار فهلك والله تعالى برىء من غيه ومن إرادته والرضا به[٦] .

والله الذى يريد الخير يرزق الناس الحلال من الرزق والله الذى لا يريد

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٣٨ .
(٢) الكشاف جـ ١ ص ٥٢٦ .
(٣) سورة الزخرف آية ٤٨ .
(٤) الكشاف جـ ٢ ص ٣٥٣ .
(٥) سورة الحجر آية ٣٩ .
(٦) الكشاف جـ ١ ص ٥١٥ .

الشر لا يرزق الناس الحرام بل هم كاسبوه بأنفسهم، فلنر قول الزمخشرى فى الآية: (أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا...)[١] فإن قلت معيشتهم ما يعيشون به من المنافع ومنهم من يعيش بالحلال ومنهم من يعيش بالحرام فإذن قد قسم الله تعالى الحرام كما قسم الحلال ؟ قلت الله تعالى قسم لكل عبد معيشته وهى مطاعمه ومشاربه وما يصلحهم من المنافع وأذن له فى تناولها ولكن شرط عليه وكلفه أن يسلك فى تناولها الطريق التى شرعها فإذا سلكها فقد تناول قسمته من المعيشة حلالا وسماها رزق الله وإذا لم يسلكها تناولها حراماً وليس له أن يسميها رزق الله فالله تعالى قاسم المعايش والمنافع ولكن العباد هم الذين يكسبونها صفة الحرمة بسوء تناولهم وهو عدولهم فيه عما شرعه الله إلى ما لم يشرعه [٢].

ولهذا فالرزق الذى يضاف إلى الله ويسند إلى ذاته هو الرزق الحلال والحلال وحده . يقول الزمخشرى فى الآية: (والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار)[٣] مما رزقناهم من الحلال لأن الحرام لا يكون رزقاً ولا يسند إلى الله[٤] ويكرر المعنى عينه فى الآية: (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون)[٥] فيقول وإسناد الرزق إلى نفسه للإعلام بأنهم ينفقون الحلال المطلق الذى يستأهل أن يضاف إلى الله ويسمى رزقاً منه[٦] .

والمسألة الثالثة التى دان بها المعتزلة من مسائل أصل العدل هذه المسألة: أن الله لم يخلق أفعال البلاد لا خيراً ولا شراً وأن إرادة الإنسان حرة والإنسان خالق أفعاله ،ومن أجل هذا كان مثاباً على الخير معاقباً على الشر . ولقد

---

(١) سورة الزخرف آية ٣٢ .
(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٣٥٠ و ٣٥١ .
(٣) سورة الرعد آية ٢٢ .
(٤) الكشاف جـ ١ ص ٤٩٥ .
(٥) سورة البقرة آية ٢ .
(٦) الكشاف جـ ١ ص ١٨ .

وجد الزمخشرى فى ظاهر الآية : (ولو شاء ربك لجعل الناس أمه واحدة . .)[١] ما يعينه على تقرير رأى المعتزلة فى حرية الإرادة الإنسانية قال : يعنى لاضطرهم إلى أن يكونوا أهل أمة واحدة أى ملة واحدة وهى ملة الإسلام كقوله إن هذه أمتكم أمة واحدة وهذا الكلام يتضمن نفى الاضطرار وأنه لم يضطرهم إلى الاتفاق على دين الحق ولكنه مكنهم من الاختيار الذى هو أساس التكليف فاختار بعضهم الحق وبعضهم الباطل فاختلفوا فلذلك قال : (ولا يزالون مختلفين . إلا من رحم ربك) إلا ناساً هداهم الله ولطف بهم فاتفقوا على دين الحق غير مختلفين فيه (ولذلك خلقهم) ذلك إشارة إلى ما دل عليه الكلام الأول وتضمنه يعنى ولذلك من التمكين والاختيار الذى كان عنه الاختلاف خلقهم ليثيب مختار الحق بحسن اختيارة ويعاقب مختار الباطل بسوء اختياره [٢] .

إن الله يسأل الملائكة والرسل : أأنتم سبب ضلال عبادى فيتبرءون من نسبة الضلال إليهم وإذا كان الملائكة والرسل بريئين من ضلال العباد فتنزيه الله عن إضلال عباده أولى . هذا الدليل يسوقه الزمخشرى ليؤكد أن إرادة الإنسان حرة عند الآيتين : (ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل . قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً)[٣] فيقول : وفيه كسر بين لقول من يزعم أن الله يضل عباده على الحقيقة حيث يقول للمعبودين من دونه أأنتم أضللتموهم أم هم ضلوا بأنفسهم فيتبرءون من إضلالهم ويستعيذون به أن يكونوا مضلين ويقولون بل أنت تفضلت من غير سابقة على هؤلاء وآبائهم تفضل جواد كريم فجعلوا النعمة التى حقها أن تكون سبب الشكر سبب الكفر ونسيان الذكر وكان ذلك سبب هلاكهم ، فإذا برّأت الملائكة والرسلُ نفسَهم من نسبة الإضلال الذى هو عمل الشياطين

---

(١) سورة هود آية ١١٨ .

(٢) الكشاف جـ ١ ص ٤٥٩ .

(٣) سورة الفرقان آيتا ١٧ و ١٨ .

إليهم واستعاذوا منه فهم لربهم الغنى العدل أشد تبرئة وتنزيهاً منه ولقد نزهوه حين أضافوا إليه التفضل بالنعمة والتمتيع بها وأسندوا نسيان الذكر والتسبب به للبوار إلى الكفرة فشرحوا الإضلال المجازى الذى أسنده الله إلى ذاته فى قوله: (يضل من يشاء) ولو كان هو المضل على الحقيقة لكان الجواب العتيد أن يقولوا بل أنت أضللتهم والمعنى أأنتم أوقعتموهم فى الضلال عن طريق الحق أم هم ضلوا عنه بأنفسهم[١].

وإذا كان الله لا يتدخل فى إرادة الإنسان وأطلقها حرة فآتت الفعل إن شراً أو خيراً فما مدى سلطان الشيطان على الإنسان ؟ إن الشيطان ليس له سلطان على الإرادة الإنسانية وإنما هو يزين والإنسان يختار لنفسه إما طريق الشيطان أو طريق الهدى. وقد وجد الزمخشرى آية بعينه ظاهرها على تقرير هذه المعانى وهى: (وقال الشيطان لما قُضِيَ الأمرُ إن اللهَ وَعَدَكم وَعْدَ الحق ووعدتُكُم فأخلفتُكُمْ وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمون منْ قبلُ إن الظالمين لهم عذابٌ أليم)[٢] فاغتنمها قال: وهذا دليل على أن الإنسان هو الذى يختار الشقاوة أو السعادة ويحصلها لنفسه وليس من الله إلا التمكين ولا من الشيطان إلا التزيين ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقال فلا تلومونى ولا أنفسكم فإن الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه[٣].

إن الله عادل منح ألطافه عباده أجمعين فكلفهم تكاليف وبعث إليهم الأنبياء وشرع الشرائع ومهد الأحكام ونبه على الطريق الأصوب[٤] غير أن من الناس من علم الله أنه مؤمن فهو يساعده على الإيمان أى يلطف به ومنهم من صمم على الكفر فيمنعه الله ألطافه أو يخذله. بهذه المعانى فسر الزمخشرى

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ١٠٥.

(٢) سورة إبراهيم آية ٢٢.

(٣) الكشاف جـ ١ ص ٥٠٥.

(٤) هذا مجمل رأى الجبائى فى لطف الله. الملل والنحل للشهرستانى جـ ١ ص ٤٣.

الآية : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوتَ فمنهم مَنْ هدَى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة . . .)[١] فقال : فمنهم من هدى الله أى لطف به لأنه عرفه من أهل اللطف (ومنهم من حقت عليه الضلالة) أى ثبت عليه الخذلان والترك من اللطف لأنه عرفه مصمماً على الكفر لا يأتى منه خير[٢] .

واللطف بالمؤمنين مرادف لهدايتهم ومنع الألطاف عن الكافرين رديف إضلالهم وخذلانهم كما يبين لنا من تفسير الزمخشرى للآية : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيُضِلُّ الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم)[٣] يقول : كقوله : (فمنكم كافر ومنكم مؤمن)[٤] لأن الله لا يضل إلا من يعلم أنه لن يؤمن ولا يهدى إلا من يعلم أنه يؤمن والمراد بالإضلال التخلية ومنع الألطاف وبالهداية التوفيق واللطف فكان ذلك كناية عن الكفر والإيمان[٥].

وحين يمنح الله ألطافه المؤمنين ويمنع الكافرين ألطافه فهو لا يتدخل فى إرادتهم الحرة إذ هم الذين يختارون الهداية أو الضلال فيعين الله بألطافه أولئك الذين اهتدوا ويترك الكافرين وشأنهم ليوم يحاسبون . فلننظر كيف أدار الزمخشرى تفسير هذه الآية : (ولو شاء الله لجعلكم أمه واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون)[٦] حول هذه المعانى إذ قال : ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة حنيفة مسلمة على طريق الإلجاء والاضطرار وهو قادر على ذلك ولكن الحكمة اقتضت أن يضل من يشاء وهو أن يخذل من علم أنه يختار الكفر ويصمم عليه ويهدى من يشاء وهو أن يلطف بمن علم أنه يختار الإيمان ، يعنى أنه بنى الأمر على الاختيار وعلى ما يستحق به

---

(١) سورة النحل آية ٣٦ .
(٢) الكشاف ج ١ ص ٥٢٦ .
(٣) سورة إبراهيم آية ٤ .
(٤) سورة التغابن آية ٢ .
(٥) الكشاف ج ١ ص ٥٠٠ .
(٦) سورة النحل آية ٩٣ .

اللطف والخذلان والثواب والعقاب ولم يبنه على الإجبار الذى لا يستحق به شىء من ذلك وحققه بقوله: (ولتسألن عما كنتم تعملون) ولو كان هو المضطر إلى الضلال والاهتداء لما أثبت لهم عملا يسألون عنه[١] .

٣ و ٤ — الوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين :

نجمع هنا بين الأصلين الثالث والرابع من أصول المعتزلة لأنهما شديدا الارتباط وثيقا الصلة وقولهم فيهما ينبنى على تصورهم للإيمان وتصورهم للعدل الإلهى وعلى قولهم إن العالم سائر لغرض يرمى إلى تحقيقه [٢]

إن الزمخشرى كالمعتزلة يتصور الإيمان هكذا: أنه اعتقاد الحق والإعراب عنه باللسان وتصديقه بالعمل . فيقول فى الآية (. . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك . .)[٣] فإن قلت ما الإيمان الصحيح ؟ قلت أن يعتقد الحق ويعرب عنه بلسانه ويصدقه بعمله فمن أخل بالاعتقاد وإن شهد وعمل فهو منافق ومن أخل بالشهادة فهو كافر ومن أخل بالعمل فهو فاسق[٤] ثم يحاول الزمخشرى فى تفسيره تقرير هذا التعريف وتأكيده فهو يبين بالمنطق والقرآن أن الإيمان منه الطاعات والطريق إليها السمع ، ومنه التصديق والطريق إليه العقل . فيقول فى الآية: (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان . .)[٥] فإن قلت قد علم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان يدرى ما القرآن قبل نزوله عليه فما معنى قوله (ولا الإيمان) والأنبياء لا يجوز عليهم إذا عقلوا وتمكنوا من النظر والاستدلال أن يخطئهم الإيمان بالله وتوحيده ويجب أن يكونوا معصومين من ارتكاب الكبائر ومن الصغائر التى فيها تنفير قبل المبعث وبعده فكيف لا يعصمون من الكفر ؟ قلت :

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٥٣٦ .
(٢) ضحى الإسلام لأحمد أمين جـ ٣ ص ٦١ .
(٣) سورة البقرة آية ٤ .
(٤) الكشاف جـ ١ ص ١٨ .
(٥) سورة الشورى آية ٥٢ .

الإيمان اسم يتناول أشياء بعضها الطريق إليه العقل وبعضها الطريق إليه السمع فعنى به ما الطريق إليه السمع دون العقل وذاك ما كان له فيه علم حتى كسبه بالوحى ألا ترى أنه قد فسر الإيمان فى قوله تعالى : (وما كان الله ليضيع إيمانكم . .)[١] بالصلاة لأنها بعض ما يتناوله الإيمان[٢] كما يستدل بالقرآن لفكرته عن الإيمان الذى لا ينفع إلا وبصحبته العمل يقول . . إن الإيمان لا ينفع إلا مع العمل كما أن العمل لا ينفع إلا مع الإيمان ، وإنه لايفوز عند الله إلا الجامع بينهما ألا ترى إلى قوله: تعالى (. . . لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنتْ منْ قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً . . .)[٣] .

ويستدل أيضاً لفكرته عن الإيمان بأحاديث فيقول عند الآية : (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا اللهُ ونعم الوكيل)[٤] الطاعات من جملة الإيمان لأن الإيمان اعتقاد وإقرار وعمل وعن ابن عمر قلنا : يارسول الله إن الإيمان يزيد وينقص قال نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة وينقص حتى يدخل صاحبه النار . وعن عمر رضى الله عنه أنه كان يأخذ بيد الرجل فيقول قم بنا نزدد إيماناً . وعنه لو وزن إيمان أبو بكر بإيمان هذه الأمة لرجح به[٥] فالإيمان يزداد بازدياد الطاعات حتى ليفضل الرجل إيماناً بما يؤدى من طاعات .

وإذا خلص الزمخشرى من تعريفه للإيمان هذا التعريف — متابعاً المعتزلة — انتقل إلى النقطة التالية وهى مرتكب المعاصى فرأى أن المعاصى المرتكبة قسمان: صغائر وكبائر فالصغائر ما لم يأت فيها وعيد والكبائر ما جاء فيها وعيد ولاتسقط إلا بالتوبة ،وقد تكون الكبيرة صغيرة وإنما صارت كبيرة بالإضافة إلى ثواب صاحبها يقول الزمخشرى مجملا هذا « والكبيرة والصغيرة إنما وصفتا بالكبر

---

(١) سورة البقرة آية ١٤٣ .
(٢) الكشاف جـ ١ ص ٣٤٤ و ٣٤٥ .
(٣) سورة الأنعام آية ١٥٨ والنص من الكشاف جـ ٢ ص ٤١١ .
(٤) سورة آل عمران آية ١٧٣ .
(٥) الكشاف جـ ١ ص ١٧٨ .

والصغر بإضافتهما إما إلى طاعة أو معصية أو ثواب فاعلهما »[١] وكرر هذا فقال فى موضع آخر : « الكبائر الذنوب التى لا يسقط عقابها إلا بالتوبة وقبل التى يكبر عقابها بالإضافة إلى ثواب صاحبها »[٢] ثم يشرح الزمخشرى هذا التعريف الثانى للكبيرة القائل بأن الكبيرة وصف للصغيرة بالإضافة إلى ثواب صاحبها عند الآية : (قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منى هدًى فمن تبعَ هُدايَ فلا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون)[٣] مبيناً أن الصغيرة لدى النبى تبلغ فى عقابها حد الكبيرة لطفاً لهم ولأقوامهم . يقول فإن قلت الخطيئة التى أهبط بها آدم إن كانت كبيرة فالكبيرة لا تجوز على الأنبياء وإن كانت صغيرة فلم جرى عليه ما جرى من نزع اللباس والإخراج من الجنة والإهباط من السماء كما فعل بإبليس ونسبته إلى الغى والعصيان ونسيان العهد وعدم العزيمة والحاجة إلى التوبة ؟ قلت ما كانت إلا صغيرة مغمورة بأعمال قلبه من الإخلاص والأفكار الصالحة التى هى أجل الأعمال وأعظم الطاعات وإنما جرى عليه ما جرى تعظيما للخطيئة وتفظيعاً لشأنها وتهويلا ليكون ذلك لطفاً له ولذريته فى اجتناب الخطايا واتقاء المآثم والتنبيه على أنه أخرج من الجنة بخطيئة واحدة فكيف يدخلها ذو خطايا جمة[٤] .

وحين نزل القرآن فى الناس كانوا أمامه فريقين : فريق مؤمن وآخر مشرك مرتكب لكبيرة الكفر ، هذا ما يناقشه الزمخشرى فى الآيتين : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليما)[٥] فيقول : فإن قلت كيف ذكر المؤمنين الأبرار والكفار ولم يذكر الفسقة ؟ قلت كان الناس حينئذ إما

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٢٠٤ .

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٤١٨ .

(٣) سورة البقرة آية ٣٨ .

(٤) الكشاف جـ ١ ص ٥٣ و ٥٤ .

(٥) سورة الإسراء آيتا ٩ و ١٠ .

مؤمن تقى وإما مشرك وإنما حدث أصحاب المنزلة بين المنزلتين بعد ذلك[١] .

لم يكن إذن حين نزول القرآن من الكبائر إلا كبيرة الكفر يقترفها المشركون ثم حدثت بعد كبيرة الفسق أو المنزلة بين المنزلتين ؛ والفاسق فى الشريعة الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة وهو النازل بين المنزلتين أى بين منزلة المؤمن والكافر وقالوا إن أول من حد له هذا الحد أبو حذيفة واصل بن عطاء رضى الله عنه وعن أشياعه ،وكونه بين بين أن حكمه حكم المؤمن فى أنه يناكح ويوارث ويغسل ويصلى عليه ويدفن فى مقابر المسلمين وهو كالكافر فى الذم واللعن والبراءة منه واعتقاد عداوته وألا تقبل له شهادة ، ومذهب مالك بن أنس والزيدية أن الصلاة لا تجزئ خلفه ويقال للخلفاء المردة من الكفار الفسقة وقد جاء الاستعمالان فى كتاب الله (بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان)[٢] يريد اللمز والتنابز (إن المنافقين هم الفاسقون)[٣] .

ثم بين الزمخشرى صنوف الكبائر بنقول عن الصحابة : « . . عن على رضى الله عنه الكبائر سبع : الشرك والقتل والقذف والزنا وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف والتغرب بعد الهجرة وزاد ابن عمر السحر واستحلال الحرام . وعن ابن عباس أن رجلا قال له الكبائر سبع فقال هى إلى سبعمائة أقرب لأنه لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار »[٤] .

ويظهر أن الزمخشرى يميل إلى رأى ابن عباس فهو لم يفصح لنا عن صنوف الكبائر وهذا طبيعى منه ما دام لا يحتكم إلى الشريعة أو السمع وحده إذ منهيات الشريعة محدودة وإنما يحتكم كذلك إلى العقل الذى يدرك ما فى الأشياء من قبح أو حسن ذاتيين ومن الصعب أن يحدها ويحدد مسئولية إرادة مرتكبها .

وإذا خلص الزمخشرى من هذا أخذ يربط الثواب والعقاب بالأعمال ربطاً

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٥٤٣ .
(٢) سورة الحجرات آية ١١ .
(٣) سورة التوبة آية ٦٧ . والنص من الكشاف جـ ١ ص ٤٩ .
(٤) الكشاف جـ ١ ص ٢٠٤ .

حتماً متأثراً أسلافه من المعتزلة فرأى الزمخشرى أن عطاء الله إما ثواب أو تفضل أو عوض فالتفضل زيادة فى الثواب وهو بغير حساب وأما الثواب فبحساب لأنه حسب الاستحقاق يقول الزمخشرى فى الآى : (. . . يُسبحُ لهُ فيها بالغدو والآصال ، رجالٌ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار . ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله . . .)[١] أى أحسن جزاء أعمالهم كقوله (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة)[٢] والمعنى يسبحون ويخافون ليجزيهم ثوابهم مضاعفاً ويزيدهم على الثواب تفضلا وكذلك معنى قوله الحسنى وزيادة المثوبة الحسنى وزيادة عليها من التفضل وعطاء الله تعالى إما تفضل وإما ثواب وإما عوض[٣] .

وعطاء الله فى الدنيا تفضل أيضاً والحمد عليه فى الدنيا من الناس واجب وأما عطاء الله فى الآخرة فالحمد عليه ليس بواجب لأنه ثواب مستحق للعبد واجب على الله ،حول هذه المعانى يدور نقاش الزمخشرى فى الآية : (الحمدُ لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير)[٤] فإن قلت ما الفرق بين الحمدين ؟ قلت أما الحمد فى الدنيا فواجب لأنه على نعمة متفضل بها وهو الطريق إلى تحصيل نعمة الآخرة وهى الثواب وأما الحمد فى الآخرة فليس بواجب لأنه على نعمة واجبة الإيصال إلى مستحقها إنما هو تتمة سرور المؤمنين وتكملة اغتباطهم يلتذون به كما يلتذ من به العطاش بالماء البارد[٥] .

والتفضل ليس واجباً على الله إلا أن عدل الله شاء ألا ينقص من فضله يقول الزمخشرى فيما يقوله فى الآية : (ومَنْ يعمل من الصالحات من ذكر

---

(١) سورة النور الآيات ٣٦ – ٣٨ .
(٢) سورة يونس آية ٢٦ .
(٣) الكشاف جـ ٢ ص ٩٥ .
(٤) سورة سبأ آية ١ .
(٥) الكشاف جـ ٢ ص ٢٢٤ .

أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً)[١] . . أما المحسن فله ثواب وتوابع للثواب من فضل الله هى فى حكم الثواب فجاز أن ينقص من الفضل لأنه ليس بواجب فكان نفى الظلم دلالة على أنه لا يقع نقصان فى الفضل[٢] .

ومن زيادة فضل الله على عباده يوم الحساب الشفاعة يقول الزمخشرى فى الآية: (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خُلَّةٌ ولا شفاعة ...)[٣] وإن أردتم أن يحط عنكم ما فى ذمتكم من الواجب لم تجدوا شفيعاً يشفع لكم فى حط الواجبات لأن الشفاعة ثمة فى زيادة الفضل لا غير[٤] .

وهذه الشفاعة ليست للعصاة . يقول الزمخشرى فى الآية: (واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدلٌ ولا هم ينصرون)[٥] فإن قلت هل فيه دليل على أن الشفاعة لا تقبل للعصاة ؟ قلت نعم لأنه نفى أن تقضى نفس عن نفس حقًّا أخلت به من فعل أو ترك ثم نفى أن يقبل منها شفاعة شفيع فعلم أنها لا تقبل للعصاة[٦] . وإنما الشفاعة للمرتضين هذا ما يقوله الزمخشرى فى الآية: (يومَ يقومُ الروحُ والملائكة صفًّا لا يتكلمون إلا من أذنَ له الرحمن وقال صواباً)[٧] . هما شريطتان أن يكون المتكلم منهم مأذوناً له فى الكلام وأن يتكلم بالصواب فلا يشفع لغير مرتضى لقوله تعالى : (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى)[٨] .

---

(١) سورة النساء آية ١٢٤ .
(٢) الكشاف جـ ١ ص ٢٣٠ .
(٣) البقرة آية ٢٥٤ .
(٤) الكشاف جـ ١ ص ١١٩ و ١٢٠ .
(٥) البقرة آية ٤٨ .
(٦) الكشاف جـ ١ ص ٥٦ .
(٧) سورة النبأ آية ٣٨ .
(٨) سورة الأنبياء آية ٢٨ والنص من الكشاف جـ ٢ ص ٥٢٠ .

والشفاعة تنفع يوم الحساب لأنها تزيد فى درجات المرتضين . بهذا المعنى الاعتزالى يفسر الزمخشرى الآية : (فما تنفعهم شفاعة الشافعين)[١] فيقول : أى لو شفع لهم الشافعون جميعاً من الملائكة والنبيين وغيرهم لم تنفعهم شفاعتهم لأن الشفاعة لمن ارتضاه الله وهم مسخوط عليهم وفيه دليل على أن الشفاعة تنفع يومئذ لأنها تزيد فى درجات المرتضين[٢] .

وأما الأعواض فأجر يوم القيامة عن ذنوب خفّت فى الدنيا بألم حدث لأصحابها من الأنبياء والأطفال والمجرمين يقول الزمخشرى فى الآية : (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوعن كثير)[٣] مجملا هذه المعانى ومستنصراً بأحاديث ؛ والآية مخصوصة بالمجرمين ولا يمتنع أن يستوفى الله بعض عقاب المجرم ويعفو عن بعض فأما من لا جرم له كالأنبياء والأطفال والمجانين فهؤلاء إذا أصابهم شىء من ألم أو غيره فللعوض الموفى والمصلحة . وعن النبى صلى الله عليه وسلم : ما من اختلاج عرق ولا خدش عود ولا نكبة حجر إلا بذنب ولما يعفو الله عنه أكثر . وعن بعضهم . من لم يعلم أن ما وصل إليه من الفتن والمصائب باكتسابه وأن ما عفا عنه مولاه أكثر كان قليل النظر فى إحسان ربه إليه . وعن آخر : العبد ملازم للجنايات فى كل أوان وجناياته فى طاعاته أكثر من جناياته فى معاصيه لأن جناية المعصيه من وجه وجناية الطاعة من وجوه والله يطهر عبده من جناياته بأنواع من المصائب ليخفف عنه أثقاله فى القيامة ولولا عفوه ورحمته لهلك فى أول خطوة . وعن على رضى الله عنه وقد رفعه : من عفى عنه فى الدنيا عفى عنه فى الآخرة ومن عوقب فى الدنيا لم تثن عليه العقوبة فى الآخرة . وعنه رضى الله عنه : هذه أرجى آية للمؤمنين فى القرآن[٤] .

ويشترط لمن يستحق الثواب ألا يحبط عمله بكفر أو كبيرة ، والزمخشرى

---

(١) سورة المدثر آية ٤٨ .
(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٥٠٦ .
(٣) سورة الشورى آية ٣٠ .
(٤) الكشاف جـ ٢ ص ٣٤١ و ٣٤٢ .

يستعين لهذا الرأى بظاهر آى من القرآن فينتهز الآية (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار . . .)[١] ليقول :

فإن قلت أما يشترط فى استحقاق الثواب بالإيمان والعمل الصالح ألا يحبطهما المكلف بالكفر والإقدام على الكبائر وألا يندم على ما أوجده من فعل الطاعة وترك المعصية فهلا شرط ذلك ؟ قلت : لما جعل الثواب مستحقًّا بالإيمان والعمل الصالح والبشارة مختصة بمن يتولاهما وركز فى العقول أن الإحسان إنما يستحق فاعله عليه المثوبة والثناء إذا لم يتعقبه بما يفسده ويذهب بحسنه وأنه لا يبقى مع وجود مفسده إحساناً وأعلم بقوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم وهو أكرم الناس عليه وأعزهم : (لئن أشركت ليحبطن عملك)[٢] وقال تعالى للمؤمنين : (ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم)[٣] كان اشتراط حفظهما من الإحباط والندم كالداخل تحت الذكر[٤] .

ويستدل الزمخشرى أيضاً على أن الطاعات تحبطها الكبائر بنقول تؤيد ذلك عند الآية : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم)[٥] أى لا تحبطوا الطاعات بالكبائر كقوله تعالى : (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) إلى أن قال : (أن تحبط أعمالكم) وعن أبى العالية كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون أنه لا يضر مع الإيمان ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل حتى نزلت (ولا تبطلوا أعمالكم) فكانوا يخافون الكبائر على أعمالهم . وعن حذيفة فخافوا أن تحبط الكبائر أعمالهم ،وعن ابن عمر كنا نرى أنه ليس شىء من حسناتنا إلا مقبولا حتى نزل : (إن الله لا يغفر أن

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥ .
(٢) سورة الزمر آية ٦٥ .
(٣) سورة الحجرات آية ٢ .
(٤) الكشاف ج ١ ص ٤٣ .
(٥) سورة محمد آية ٣٣ .

يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء)[١] فكففنا عن القول فى ذلك فكنا نخاف على من أصاب الكبائر ونرجو لمن لم يصبها . وعن قتادة رحمه الله : رحم الله عبداً لم يحبط عمله الصالح بعمله السيئ وقيل : لا تبطلوها بمعصيتهما ؛ وعن ابن عباس رضى الله عنه لا تبطلوها بالرياء والسمعة ، وعنه بالشك والنفاق ؛ وقيل بالعجب فإن العجب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب وقيل لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى[٣] .

فالصلاة مثلا طاعة واقتراف المآثم يحبطها كما يقول الزمخشرى فى الآية : (والذين هم على صلاتهم يحافظون)[٢] . . . ومحافظتهم عليها أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ومواقيتها ويقيموا أركانها ويكملوها بسننها وآدابها ويحفظوها من الإحباط باقتراف المآثم[٤] .

والكافر والعاصى سواء لا يغفر لهما إلا بالتوبة.لننظر ماذا يقول الزمخشرى فى الآية: (إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً)[٥] إنه يقول جمعوا بين الكفر والمعاصى أو كان بعضهم كافرين وبعضهم ظالمين أصحاب كبائر لأنه لا فرق بين الفريقين فى أنه لا يغفر لهما إلا بالتوبة[٦] .

وسخط الله يستحق بالكفر كما يستحق بركوب المعاصى ، هذا ما نجده فى قول الزمخشرى فى الآية (. . .وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك

---

(١) سورة النساء آية ٤٨ .

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٣٨١ .

(٣) سورة المعارج آية ٣٤ .

(٤) الكشاف جـ ٢ ص ٤٨٩ ويقول الزمخشرى جـ ٢ ص ٣٩١ س ١٤ . إن فيما يرتكب من يؤمن من الآثام ما يحبط عمله .. وإن فى آثامه ما لا يدرى أنه محبط ولعله عند الله كذلك فعلى المؤمن أن يكون فى تقواه كالماشى فى طريق شائك لا يزال يحترز ويتوقى ويتحفظ .

(٥) سورة النساء آية ١٦٨ .

(٦) الكشاف جـ ١ ص ٢٤١ .

بما عصَوا وكانوا يعتدون)[١] ذلك بما عصوا : أى ذلك كائن بسبب عصيانهم لله واعتدائهم لحدوده ليعلم أن الكفر وحده ليس بسبب فى استحقاق سخط الله وأن سخط الله يستحق بركوب المعاصى كما يستحق بالكفر ونحوه : (. . مما خطيئاتهم أغرقوا . . .)[٢] (وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل . . .)[٣] .

والعاصى إن لم يتب خلد فى العذاب ففاعلو الربا مخلدون فى العذاب ، هذا المعنى يقرره الزمخشرى فى الآية : (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخطبه الشيطانُ من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمرهُ إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)[٤] . . ومن عاد إلى الربا : (فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وهذا دليل بين على تخليد الفساق[٥] .

والعاصى قاتل المؤمن عمداً مخلد فى العذاب ، لنر قول الزمخشرى فى الآية : (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنمُ خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنهُ وأعدّ له عذاباً عظيما)[٦] فإن قلت : هل فيها دليل على خلود من لم يتب من أهل الكبائر ؟ قلت : ما أبين الدليل ! وهو تناول قوله ومن يقتل أى قاتل كان من مسلم أو كافر تائب أو غير تائب إلا أن التائب أخرجه الدليل فمن ادعى إخراج المسلم غير التائب فليأت بدليل مثله[٧] .

أما الكافر فإن تاب غفر الله له . هؤلاء هم عبدة العجل كفروا ثم تابوا فغفر الله لهم . يقول الزمخشرى فى الآيتين : (إن الذين اتخذوا العجل سينالهم

---

(١) سورة البقرة آية ٦١ .
(٢) سورة نوح آية ٢٥ .
(٣) سورة النساء آية ١٦١ والنص جـ ١ ص ١٦٢ .
(٤) سورة البقرة آية ٢٧٥ .
(٥) الكشاف جـ ١ ص ١٢٩ .
(٦) سورة النساء آية ٩٣ .
(٧) الكشاف جـ ١ ص ٢٢٣ .

غضبٌ من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين . والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم)[١] والذين عملوا السيئات من الكفر والمعاصى كلها ثم تابوا ثم رجعوا من بعدها إلى الله واعتذروا إليه وآمنوا وأخلصوا الإيمان إن ربك من بعدها ، من بعد تلك العظائم لغفور ، لستور عليهم محاء لما كان منهم رحيم منعم عليهم بالجنة . وهذا حكم عام يدخل تحته متخذو العجل ومن عداهم، عظم جنايتهم أولا ثم أردفها تعظيم رحمته ليعلم أن الذنوب وإن جلت وعظمت فإن عفوه وكرمه أعظم وأجل ولكن لا بد من حفظ الشريطة وهى وجوب التوبة والإنابة وما وراءه طمع فارغ وأشعبية باردة لا يلتفت إليها حازم[٢] .

وبعد فكما أنه لا يغفر لعاص أو كافر إلا بالتوبة فإن عدل الله شاء وجوب المغفرة لمن تاب . حول هذا المعنى يدير الزمخشرى تفسيره ونقاشه فى الآية: (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً)[٣] التوبة من تاب الله عليه إذا قبل توبته وغفر له . يعنى إنما القبول والغفران واجب على الله تعالى لهؤلاء . . فإن قلت ما فائدة قوله : (فأولئك يتوب الله عليهم) بعد قوله : (إنما التوبة على الله لهم) ؟ قلت قوله إنما التوبة على الله إعلام بوجوبها عليه كما يجب على العبد بعض الطاعات وقوله فأولئك يتوب الله عليهم عدة بأنه يفى بما وجب عليه وإعلام بأن الغفران كائن لا محالة كما يعد العبد الوفاء بالواجب[٤] .

٥ ــ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

وهذا هو الأصل الخامس من أصول المعتزلة ،والمسلمون جميعاً متفقون فى هذا الأصل ولكنهم مختلفون فى مداه ،وقد جلاه الزمخشرى المعتزلى فى تفسيره

---

(١) سورة الأعراف آيتا ١٥٢ و ١٥٣ .
(٢) الكشاف جـ ١ ص ٣٥٣ .
(٣) سورة النساء آية ١٧ .
(٤) الكشاف جـ ١ ص ١٩٨ .

الآية : (ولتكنْ منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهونَ عن المنكر وأولئك هم المفلحون)[١] على النحو التالى :

(ا) فهو يرى أن هذا الأصل من فروض الكفايات ولا يصلح له إلا من علم المعروف والمنكر وتلطف فى مباشرتهما . يقول الزمخشرى : ولتكن منكم أمة من للتبعيض لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفايات ولأنه لا يصلح له إلا من علم المعروف والمنكر وعلم كيف يرتب الأمر فى إقامته وكيف يباشر فإن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر وربما عرف الحكم فى مذهبه وجهله فى مذهب صاحبه فنهاه عن غير منكر وقد يغلظ فى موضع اللين ويلين فى موضع الغلظة وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تمادياً أو على من الإنكار عليه عبث كالإنكار على أصحاب المآصر والجلادين وأضرابهم . . .

(ب) ثم يستعين الزمخشرى بأحاديث فى فضل الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ومنزلتهم عند الله يقول : عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سئل وهو على المنبر من خير الناس ؟ قال آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلهم . وعنه عليه السلام من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله فى أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه . وعن على رضى الله عنه : أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومن شنئ الفاسقين وغضب لله غضب الله له .

(جـ) والأمر بالمعروف قد يكون واجباً وقد يكون ندباً أما النهى عن المنكر فواجب كله لاتصافه بالقبح وقد اختلف فيما أوجبه عند المعتزلة فقيل السمع والعقل كلاهما وقيل السمع وحده . يقول الزمخشرى : وعن سفيان الثورى إذا كان الرجل محبباً فى جيرانه محموداً عند إخوانه فاعلم أنه مداهن من الأمر بالمعروف تابع للمأمور به إن كان واجباً فواجب وإن كان ندباً فندب وأما النهى عن المنكر فواجب كله لأن جميع المنكر تركه واجب لاتصافه بالقبح . فإن

---

(١) سورة آل عمران آية ١٠٤ .

قلت : ما طريق الوجوب؟ قلت : قد اختلف فيه الشيخان فعند أبي على السمع والعقل وعند أبي هاشم السمع وحده .

(د) ثم يبين الزمخشرى أن هناك شروطاً للنهى عامة هى أن يعلم الناهى أن ما ينكره قبيح وألا يكون ما ينهى عنه واقعاً وألا يظن أن النهى يزيد فى منكرات المنهى أو أن نهيه فيمن ينهى لن يؤثر . يقول فإن قلت ما شرائط النهى؟ قلت أن يعلم الناهى أن ما ينكره قبيح لأنه إذا لم يعلم لم يأمن أن ينكر الحسن وألا يكون ما ينهى عنه واقعاً لأن الواقع لا يحسن النهى عنه وإنما يحسن الذم عليه والنهى عن أمثاله وألا يغلب على ظنه أن المنهى يزيد فى منكراته وألاّ يغلب على ظنه أن نهيه لا يؤثر لأنه عبث .

(هـ) كما أن هنالك شروطاً لوجوب النهى وضرورته وهو أن يغلب على ظن الناهى وقوع المعصية وأن لا يغلب على ظنه أن إنكاره ملحق به الضرر العظيم . يقول الزمخشرى فإن قلت : فما شروط الوجوب ؟ قلت : أن يغلب على ظنه وقوع المعصية نحو أن يرى الشارب قد تهيأ لشرب الخمر بإعداد آلاته وألا يغلب على ظنه أنه إن أنكر لحقته مضرة عظيمة .

(و) وإذا ما نهى الناهى فعليه أن يبتدئ من السهل فإن لم يجد ذلك ترقى إلى الصعب ويباشر النهى كل مسلم تمكن منه . على أن من أمور الدين ما إن ترك علم قبحه لكل أحد كترك الصلاة فيقوم بالنهى عنه كل مسلم . هذا عن النهى الذى يباشر باللسان فأما النهى بالقتال فيباشره الإمام وخلفاؤه لأنهم أعلم بالسياسة ومعهم عدتها . هذا ما يجمله الزمخشرى فى نقاشه التالى : فإن قلت كيف يباشر الإنكار ؟ قلت يبتدئ بالسهل فإن لم ينفع ترقى إلى الصعب لأن الغرض كف المنكر قال الله تعالى : (فأصلحوا بينهما) ثم قال : (فقاتلوا)[1] فإن قلت : فمن يباشره ؟ قلت : كل مسلم تمكن منه واختص

---

(١) سورة الحجرات آية ٩ — « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » .

بشرائطه وقد أجمعوا أن من رأى غيره تاركاً للصلاة وجب عليه الإنكار لأنه معلوم قبحه لكل أحد . وأما الإنكار الذى بالقتال فالإمام وخلفاؤه أولى لأنهم أعلم بالسياسة ومعهم عدتها .

(ز) وكل مكلف يؤمر وينهى أما غير المكلف فيمنع إذا هم بضرر غيره والصبيان ينهون عن المحرمات ليجتنبوها ويؤخذون بالطاعات ليتعودوها . يقول الزمخشرى : فإن قلت فمن يؤمر وينهى ؟ قلت : كل مكلف ،وغير المكلف إذا هم بضرر غيره منع كالصبيان والمجانين ،وينهى الصبيان عن المحرمات حتى لا يتعودوها كما يؤخذون بالصلاة ليمرنوا عليها .

(ح) ثم يثير الزمخشرى نقاشاً عقلياً يبدى فيه وجوب النهى على من يرتكب المنكر ذلك أنه إن أسقط واجباً بارتكابه المنكر فعليه واجب آخر هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ويستدل لذلك بنقول . يقول الزمخشرى : فإن قلت : هل يجب على مرتكب المنكر أن ينهى عما يرتكبه ؟ قلت : نعم يجب عليه لأن ترك ارتكابه وإنكاره واجبان عليه فبتركه أحد الواجبين لا يسقط عنه الواجب الآخر ، وعن السلف : مروا بالخير وإن لم تفعلوا . وعن الحسن أنه سمع مطرف ابن عبد الله يقول لا أقول ما لا أفعل فقال وأينا يفعل ما يقول ؟ ود الشيطان لو ظفر بهذه منكم فلا يأمر أحد بمعروف ولا ينهى عن منكر[١] .

هذه المعانى التى تتضمنها خمسة الأصول فى الاعتزال يدير عليها الزمخشرى تفسيره فإن اصطدمت تلك الأصول بظاهر النص القرآنى حاول أن يعالج الآى بفنون معالجاته حتى يطوع معناها ويلين للرأى الاعتزالى مسخراً فى سبيل ذلك كل معارفه الثقافية كما نبين هنا :

١ — فيستخدم ثقافته المنطقية ورياضته الفكرية فى تشقيق معنى الآية إلى أكثر من وجه تتعاون كلها على خدمة المذهب الاعتزالى وآلته فى هذا التشقيق العقل فيفسر الآية : (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق) بأكثر من وجه تخدم جميعها رأى المعتزلة فى حرية الإرادة يقول :

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ١٦٠ و ١٦١ .

بالطبع على قلوب المتكبرين وخذلانهم فلا يفكرون فيها ولا يعتبرون بها غفلة وانهماكاً فيما يشغلهم عنها من شهواتهم، وعن الفضل بن عياض ذكر لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عظمت أمتى الدنيا نزع عنها هيبة الإسلام وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حرمت بركة الوحى . وقيل سأصرفهم عن إبطالها وإن اجتهدوا كما اجتهد فرعون أن يبطل آية موسى بأن جمع لها السحرة فأبى الله إلا علو الحق وانتكاس الباطل . ويجوز سأصرفهم عنها وعن الطعن فيها والاستهانة بها وتسميتها سحراً بإهلاكهم[١] .

ويفسر الزمخشرى أيضاً آية : (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) خادماً رأى المعتزلة فى الإرادة الحرة يقول . يعنى أنه يميته فتفوته الفرصة التى هو واجدها وهى التمكن من إخلاص القلب ومعالجة أدوائه وعلله ورده سليما كما يريده الله فاغتنموا هذه الفرصة وأخلصوا قلوبكم لطاعة الله ورسوله واعلموا أنكم (إليه تحشرون) فيثيبكم على حساب سلامة القلوب وإخلاص الطاعة . وقيل معناه أن الله قد يملك على العبد قلبه فينسخ عزائمه ويغير نياته ومقاصده ويبدله بالخوف أمناً وبالأمن خوفاً وبالذكر نسياناً وبالنسيان ذكراً وما أشبه ذلك مما هو جائز على الله تعالى فأما ما يثاب عليه العبد ويعاقب من أفعال القلوب فلا والمجبرة على أنه يحول بين المرء والإيمان إذا كفر وبين الكفر إذا آمن تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً ، وقيل معناه أنه يطلع على كل ما يخطره المرء بباله لا يخفى عليه شىء من ضمائره فكأنه بينه وبين قلبه[٢] .

٢ — والزمخشرى كمعتزلى يريد نصرة معتقده يستجلب القراءة ويستعينها على إخضاع تفسير الآية لمذهبه فيقول مقرراً نفى الشفاعة للعصاة فى الآية : (واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدلٌ ولا هم ينصرون) قرأ قتادة (ولا يُقْبَلُ منها شفاعة) على بناء الفعل للفاعل وهو الله عز وجل ونصب الشفاعة . . فإن قلت هل فيه دليل على أن

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٣٥١ والآية ١٤٦ من سورة الأعراف .

(٢) الكشاف جـ ١ ص ٣٧٢ والآية ٢٤ من سورة الأنفال .

الشفاعة لا تقبل للعصاة ؟ قلت نعم لأنه نفى أن تقضى نفس عن نفس حقًّا أخلت به من فعل أو ترك ثم نفى أن يقبل منها شفاعة شفيع فعلم أنها لا تقبل للعصاة[١] ويحشد لهاتين الآيتين القراءات التى تقوى من فكرته أن الاعتزال كمذهب هو الإسلام كدين (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم . إن الدين عند الله الإسلام) (إن الدين عند الله الإسلام) جملة مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى . فإن قلت ما فائدة هذا التوكيد ؟ قلت فائدته أن قوله: (لا إله الا هو) توحيد وقوله: (قائماً بالقسط) تعديل. فإذا أردفه قوله : (إن الدين عند الله الإسلام) فقد آذن أن الإسلام هو العدل والتوحيد وهو الدين عند الله وما عداه فليس عنده فى شىء من الدين . . وفيه أن من ذهب إلى تشبيه أو ما يؤدى إليه كإجازة الرؤية أو ذهب إلى الجبر الذى هو محض الجور لم يكن على دين الله الذى هو الإسلام وهو بين جلى كما ترى . وقرئا مفتوحين على أن الثانى بدل من الأول كأنه قيل : شهد الله أن الدين عند الله الإسلام . والبدل هو المبدل منه فى المعنى فكان بياناً صريحاً لأن دين الله هو التوحيد والعدل . وقرئ الأول بالكسر والثانى بالفتح على أن الفعل واقع على أن وما بينهما اعتراض مؤكد . وهذا أيضاً شاهد على أن دين الإسلام هو العدل والتوحيد فترى القراءات كلها متعاضدة على ذلك[٢] .

٣ — واستخدم الزمخشرى اللغة وذللها للاعتزال فلننظر هنا كيف تعسف فى تفسير الرؤية بالمعرفة فى الآية: (. . . قال رب أرنى أنظر إليكَ قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكًّا ...)[٣] ... وتفسير آخر وهو أن يريد بقوله : (أرنى أنظر إليك) عرفنى نفسك تعريفاً واضحاً جليًّا كأنها إراءة فى جلائها بآية مثل آيات

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٥٦ والآية ٤٨ من سورة البقرة .

(٢) الكشاف جـ ١ ص ١٣٩ والآية ١٨ من آل عمران .

(٣) سورة الأعراف آية ١٤٣ .

القيامة التى تضطر الخلق إلى معرفتك أنظر إليك أعرفك معرفة اضطرار كأنى أنظر إليك ، كما جاء فى الحديث سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر بمعنى ستعرفونه معرفة جلية هى فى الجلاء كإبصاركم القمر إذا امتلأ واستوى (قال لن ترانى)أى لن تطيق معرفتى على هذه الطريقة ولن تحتمل قوتك تلك الآية المضطرة (ولكن انظر إلى الجبل) فإنى أورد عليه وأظهر له آية من تلك الآيات فإن ثبت لتجلىها واستقر مكانه ولم يتضعضع فسوف تثبت لها وتطيقها(فلما تجلى ربه للجبل) فلما ظهرت له آيةمن آيات قدرته وعظمته (جعله دكًّا وخر موسى صعقاً) لعظم ما رأى فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك مما اقترحت وتجاسرت وأنا أول المؤمنين بعظمتك وجلالك وأنشيئاً لايقوم لبطشك و بأسك[1].

ثم يفسر الزمخشرى النظر فى موضع آخر بمعنى توقع النعمة ورجائها . يقول فى الآيتين :(وجوهٌ يومئذناضرة . إلى ربها ناظرةٌ)[2] تنظر إلى ربها خاصة لا تنظر إلى غيره وهذا معنى تقديم المفعول ألا ترى إلى قوله :(إلى ربك يومئذ المستقر) [١٢ القيامة] (إلى ربك يومئذ المساق) [٣٠ القيامة] (إلى الله تصير الأمور) [٥٣ الشورى] (وإلى الله المصير) [٤٢ النور ، ١٨ فاطر] (وإليه ترجعون) [٢٤٥ البقرة وسور أخر كثيرة] (عليه توكلت وإليه أنيب) [٨٨ هود، ١٠ الشورى] كيف دل فيها التقديم على معنى الاختصاص ومعلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر ولا تدخل تحت العدد فى محشر يجتمع فيه الخلائق كلهم فإن المؤمنين نظارة ذلك اليوم لأنهم الآمنون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فاختصاصه بنظرهم إليه لوكان منظوراً إليه محال فوجب حمله على معنى يصح معه الاختصاص والذى يصح معه أن يكون من قول الناس أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بى تريد معنى التوقع والرجاء ومنه قول القائل :

وإذا نظرت إليك من ملك والبحر دونك زدتنى نعمـــا

---

(١) الكشاف ج ١ ص ٣٥٠ .

(٢) سورة القيامة آيتا ٢٢ و ٢٣ .

وسمعت سروية مستجدية بمكة وقت الظهر حين يغلق الناس أبوابهم ويأوون إلى مقائلهم تقول: عيينتى نويظرة إلى الله وإليكم . والمعنى أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم كما كانوا فى الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه[١] .

٤ — واستعان الزمخشرى معرفته بعلمى المعانى والبيان لخدمة الاعتزال فإذا ما لقى فى نظم آية إسناد فعل إلى الله وكان ظاهر هذا الإسناد لا يساعد رأى المعتزلة فى حرية الإرادة ؛ عد نظم الآية من باب المجاز يقول فى الآية: (... وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يُضل به إلا الفاسقين)[٢] وإسناد الإضلال إلى الله تعالى إسناد الفعل إلى السبب لأنه لما ضرب المثل فضل به قوم واهتدى به قوم تسبب لضلالهم وهداهم[٣] .

والله منزه عن القبيح لا يريد الشر ولا يأمر به وإذا ماكان ظاهر الآية يعارض هذه الفكرة عد الآية من باب المجاز ثم بين وجه المجاز فيها . لنر كيف أدار نظم هذه الآية حول المعنى الاعتزالى: (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً)[٤] أى أمرناهم بالفسق ففسقوا والأمر مجاز لأن حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم افسقوا وهذا لا يكون فبقى أن يكون مجازاً ووجه المجاز أنه صب عليهم النعمة صباً فجعلوها ذريعة إلى المعاصى واتباع الشهوات فكأنهم مأمورون بذلك لتسبب إيلاء النعمة فيه وإنما خولهم إياها ليشكروا ويعملوا فيها الخير ويتمكنوا من الإحسان والبر كما خلقهم أصحاء أقوياء وأقدرهم على الخير والشر وطلب منهم إيثار الطاعة على المعصية فآثروا الفسوق فلما فسقوا حق عليهم القول وهو كلمة العذاب فدمرهم[٥] .

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٥٠٩ .
(٢) سورة البقرة آية ٢٦ .
(٣) الكشاف جـ ١ ص ٤٨ و ٤٩ .
(٤) الإسراء آية ١٦ .
(٥) الكشاف جـ ١ ص ٥٤٥ .

والآى التى يعطى ظاهر نظمها معنى شبه الإله بخلقه مجاز . . . فالآية : (لعلهم يتذكرون) شبهت الإرادة بالترجى فاستعير لها[١] . وكذلك الآية (أن الله غفور شكور) الشكور فى صفة الله مجاز للاعتداد بالطاعة وتوفية ثوابها والتفضل على المثاب[٢] .

والله حين لا ينظر إلى العاصين فمجاز عن السخط عليهم . يقول الزمخشرى فى الآية : (ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم) مجاز عن الاستهانة بهم والسخط عليهم تقول : فلان لا ينظر إلى فلان تريد نفى اعتداده به وإحسانه إليه[٣] .

وتحبيب الله الإيمان وتزيينه فى القلوب كناية عن اللطف والتوفيق والإرادة حرة مختارة . لنركيف يعلل لأسلوب الكناية تعليلا جماليًّا فيقول فى الآية : (. . . ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكرّه إليكم الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ أولئك هم الراشدون)[٤] هذا من إيجازات القرآن ولمحاته اللطيفة التى لا يفطن لها إلا الخواص . . ومعنى تحبيب الله وتكريهه اللطف والإمداد بالتوفيق وسبيله الكناية كما سبق وكل ذى لب وراجع إلى بصيرة وذهن لا يغبى عليه أن الرجل لا يمدح بغير فعله وحمل الآية على ظاهرها يؤدى إلى أن يثنى عليهم بفعل الله وقد نفى الله هذا عن الذين أنزل فيهم : (ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا)[٥] فإن قلت فإن العرب تمدح العرب بالجمال وحسن الوجوه وذلك فعل الله وهو مدح مقبول عند الناس غير مردود ، قلت الذى سوغ ذلك لهم أنهم رأوا حسن الرواء ووسامة النظر فى الغالب يسفر عن مخبر مرضى وأخلاق محمودة ومن ثمّ قالوا أحسن ما فى الدميم وجهه فلم يجعلوه من صفات المدح لذاته ولكن لدلالته على غيره على أن من محققة الثقات وعلماء المعانى

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ١٦٥ . سورة القصص آية ٤٣ .
(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٣٤٠ والآية ٢٣ من سورة الشورى .
(٣) الكشاف جـ ١ ص ١٥٢ والآية ٧٧ من سورة آل عمران .
(٤) الآية ٧ من سورة الحجرات .
(٥) الآية ١٨٨ من سورة آل عمران .

من دفع صحة ذلك وخطأ المادح به وقصر المدح على النعت بأمهات الخير وهى الفصاحة والشجاعة والعدل والفقه وما يتشعب منها ويرجع إليها وجعل الوصف بالجمال والثروة وكثرة الحفدة الأعضاد وغير ذلك مما ليس للإنسان فيه عمل غلطاً ومخالفة عن المعقول[١] .

وقد استخدم الزمخشرى أسلوب التمثيل والتخييل فى خدمة فكرة المعتزلة عن التوحيد ودفع كل شبهة يشمّ منها التجسيم أو التشبيه . يقول الزمخشرى فى الآية : (فإنك بأعيننا) مثل أى بحيث نراك ونكلؤك[٢] .

ومجىء الله والملائكة تمثيل لظهور آيات اقتدار الله وتبين آثار سلطانه . يقول الزمخشرى فى الآية : (وجاء ربك والملك صفًّا صفًّا) يقول فيها هو تمثيل لظهور آيات اقتداره وتبين آثار قهره وسلطانه مثلت حاله فى ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عساكره كلها ووزرائه وخواصه عن بكرة أبيهم[٣] .

وحجب العاصين عن رؤية الله مثل لإهانتهم . يقول الزمخشرى فى الآية : (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون)[٤] وكونهم محجوبين عنه تمثيل للاستخفاف بهم وإهانتهم لأنه لا يؤذن على الملوك إلا للوجهاء المكرمين لديهم ولا يحجب عنهم إلا الأدنياء المهانون عندهم . قال :

إذا غزوا باب ذى عبية رجبوا والناس من بين مرجوب ومحجوب[٥]

وأسلوب اللف البيانى يستخدمه الزمخشرى لخدمة فكرة المعتزلة فى إنكار رؤية الله . يقول فى الآية : (وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير)[٦] وهو اللطيف يلطف عن أن تدركه الأبصار الخبير بكل لطيف فهو يدرك الأبصار

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٣٩٤ .
(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٤١٤ والآية ٤٨ من سورة الطور .
(٣) الكشاف جـ ٢ ص ٥٤٣ والآية ٢٢ من سورة الفجر .
(٤) الآية ١٥ من سورة المطففين .
(٥) الكشاف جـ ٢ ص ٥٣٢ .
(٦) الآية ١٠٣ من سورة الأنعام .

لا تطلف عن إدراكه وهذا من باب اللف[١] .

وليخدم التنزيه الاعتزالى لله يعتبر الآية : (تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك)[٢] من أسلوب المشاكلة يقول . . المعنى تعلم معلومى ولا أعلم معلومك ولكنه سلك بالكلام طريق المشاكلة وهو من فصيح الكلام وبينه فقيل : (فى نفسك) لقوله : فى نفسى[٣] .

٥ ــ والزمخشرى يسخر النحو فى خدمة الاعتزال فإذا كانت الآية يمس ظاهرها أو تأويلها مبدأ اعتزاليًّا فإنا نرى الزمخشرى نحويًّا متعسفاً متمحلا لينصر المعتقد الاعتزالى .

يقدم للآية : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفرُ ما دون ذلك لمن يشاء) بمقدمة اعتزالية يجعلها كأنها مُسلّمة ويتمحل لها وجهاً نحويًّا يقول . فإن قلت قد ثبت أن الله عز وجل يغفر الشرك لمن تاب منه وأنه لا يغفر ما دون الشرك من الكبائر إلا بالتوبة فما وجه قوله تعالى : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) ؟ قلت : الوجه أن يكون الفعل المنفى والمثبت جميعاً موجهين إلى قوله تعالى : (لمن يشاء) كأنه قيل : إن الله لا يغفر لمن يشاء الشرك ويغفر لمن يشاء ما دون الشرك على أن المراد بالأول من لم يتب وبالثانى من تاب ونظيره قولك : إن الأمير لا يبذل الدينار ويبذل القنطار لمن يشاء تريد لا يبذل الدينار لمن لا يستأهله ويبذل القنطار لمن يستأهله[٤] . والآية التى نورد هنا تبين بحق دقة الزمخشرى فى التماسه الوجوه النحوية التى يسخرها لخدمة الرأى الاعتزالى فى مسألة حرية الإرادة . فهو هنا يرى أن الخالق الله مقيد بخلق الرزق فى السماء وفى الأرض أما خلق الأفعال فهى من العباد وتعبيره هنا ملتو ملفوف غير صريح . يقول فى الآية : (هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض)

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٣٠٧ .
(٢) الآية ١١٦ من سورة المائدة .
(٣) الكشاف جـ ١ ص ٢٨٣ .
(٤) الكشاف جـ ١ ص ٢١٠ والآية ٤٨ من سورة النساء .

فإن قلت : ما محل يرزقكم ؟ قلت : يحتمل أن يكون له محل إذا أوقعته صفة لخالق وألا يكون له محل إذا رفعت محل من خالق بإضمار يرزقكم وأوقعت يرزقكم تفسيراً له أو جعلته كلاماً مبتدأ بعد قوله: هل من خالق غير الله . فإن قلت : هل فيه دليل على أن الخالق لا يطلق على غير الله تعالى ؟ قلت : نعم إن جعلت يرزقكم كلاماً مبتدأ وهو الوجه الثالث من الأوجه الثلاثة وأما على الوجهين الآخرين وهما الوصف والتفسير فقد تقيد فيهما بالرزق من السماء والأرض وخرج من الإطلاق فكيف يستشهد به على اختصاصه بالإطلاق والرزق من السماء المطر ومن الأرض النبات[١] .

ويتعسف فى إعراب هذه الآية ليقرر مسألة حرية الإرادة . الآية هى مع سابقتها: (ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوقَ والعصيانَ أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم) وفضلا مفعول له أو مصدر من غير فعله . فإن قلت: من أين جاز وقوعه مفعولا له والرشد فعل القوم والفضل فعل الله تعالى والشرط أن يتحد الفاعل ؟ قلت : لما وقع الرشد عبارة عن التحبيب والتزيين والتكريه مسندة إلى اسمه تقدست أسماؤه صار الرشد كأنه فعله فجاز أن ينتصب عنه أو لا ينتصب عن الراشدين ولكن عن الفعل المسند إلى اسم الله تعالى والجملة التى هى أولئك هم الراشدون اعتراض . أو عن فعل مقدر كأنه قيل جرى ذلك أو كان ذلك فضلا من الله، وأما كونه مصدراً من غير فعله فأن يوضع موضع رشداً لأن رشدهم فضل من الله لكونهم موفقين فيه والفضل والنعمة بمعنى الإفضال والإنعام[٢] . ولنر هذا التمحل العجيب لمعنى أداة العطف (الواو) حين يهدف الزمخشرى إلى نفى الرؤية السعيدة . يقول فى الآية: (هو الأول والآخر والظاهر والباطن) فإن قلت: فما معنى الواو ؟ قلت الواو الأولى معناها الدلالة على أنه الجامع بين الصفتين الأولية والآخرية والثالثة على أنه الجامع بين الظهور والخفاء وأما الوسطى فعلى أنه

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٢٣٨ والآية ٣ من سورة فاطر .

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٣٩٥ والآية ٧ من سورة الحجرات .

الجامع بين مجموع الصفتين الأوليين ومجموع الصفتين الأخريين فهو المستمر الوجود فى جميع الأوقات الماضية والآتية وهو فى جميعها ظاهر وباطن جامع للظهور بالأدلة والخفاء فلا يدرك بالحواس وفى هذا حجة على من جوز إدراكه فى الآخرة بالحاسة[١] .

٦ — والزمخشرى يستنصر بأضعف الأحاديث الموضوعة لنصرة مذهبه الاعتزالى . يريد ليقرر أن أشرف العلوم وأعلاها علم أهل العدل والتوحيد علم الكلام الاعتزالى فيقول فإن قلت لم فضلت هذه الآية (آية الكرسى) حتى ورد فى فضلها ما ورد منه قوله صلى الله عليه وسلم ما قرئت هذه الآية فى دار إلا اهتجرتها الشياطين ثلاثين يوماً ولا يدخلها ساحر ولا ساحرة أربعين ليلة ، ياعلىُّ علمها ولدك وأهلك وجيرانك فما نزلت آية أعظم منها . وعن على رضى الله عنه سمعت نبيكم علىَ أعواد المنبر وهو يقول : من قرأ آية الكرسى فى دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت ولا يواظب عليها إلا صديق أو عابد ومن قرأها إذا أخذ مضجعه أمنه الله على نفسه وجاره وجار جاره والأبيات حوله . وتذاكر الصحابة رضوان الله عليهم أفضل ما فى القرآن فقال لهم على رضى الله عنه : أين أنتم عن آية الكرسى ؟ ثم قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياعلى سيد البشر آدم وسيد العرب محمد ولا فخر وسيد الفرس سلمان وسيد الروم صهيب وسيد الحبشة بلال وسيد الجبال الطور وسيد الأيام يوم الجمعة وسيد الكلام القرآن وسيد القرآن البقرة وسيد البقرة آية الكرسى ؟قلت : لما فضلت له سورة الإخلاص من اشتمالها على توحيد الله تعالى وتعظيمه وتمجيده وصفاته العظمى ولا مذكور أعظم من رب العزة فما كان ذكراً له كان أفضل من سائر الأذكار وبهذا يعلم أن أشرف العلوم وأعلاها منزلة عند الله علم أهل العدل والتوحيد ولا يغرنك عنه كثرة أعدائه (ف) :

إن العرائس تلقاها مُحَسَّدةً ولا ترى للئام الناس حسادا[٢]

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٤٣٤ والآية ٣ من سورة الحديد .

(٢) الكشاف جـ ١ ص ١٢١ والآية ٢٢٥ من سورة البقرة . وأحاديث فضائل سور القرآن موضوعة للترغيب فى القرآن انظر الإتقان للسيوطى جـ ٢ ص ١٥٥ و ١٥٦ .

وإذا اصطدم الحديث بالمبدأ الاعتزالى شك فيه ثم أوله مفترضاً صحته مستنصراً بالقرآن . مثلا يخضع هذا الحديث لرأى المعتزلة فى أن الإرادة الإنسانية حرة طليقة لا دخل للشيطان فيها غير التزيين يقول : وما يروى من الحديث ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها . فالله أعلم بصحته فإن صح فمعناه أن كل مولود يطمع الشيطان فى إغوائه إلا مريم وابنها فإنهما كانا معصومين وكذلك كل من كان فى صفتهما كقوله تعالى : (لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين)[١] واستهلاله صارخاً من مسه تخييل وتصوير لطمعه فيه كأنه يمسه ويضرب بيده عليه ويقول هذا ممن أغويه ونحوه من التخييل قول ابن الرومى :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولـد

وأما حقيقة المس والنخس كما يتوهم أهل الحشو فكلاّ ، ولو سلط إبليس على الناس ينخسهم لامتلأت الدنيا صراخاً وعياطاً مما يبلونا به من نخسه[٢] والآية : (إن ربك فعّال لما يريد)[٣] يفسرها الزمخشرى وفق المعتقد الاعتزالى بخاود العصاة فى العذاب ثم يطعن المجبرة ويضعف ما يستشهدون به من حديث عبد الله ابن عمرو بن العاص ثم يتأوله بفرض صحته ثم يكر على عبد الله بن عمرو ليغمزه . يقول الزمخشرى : إنه يفعل بأهل النار ما يريد من العذاب كما يعطى أهل الجنة عطاءه الذى لا انقطاع له فتأمله فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً ولا يخدعنك قول المجبرة إن المراد بالاستثناء خروج أهل الكبائر من النار بالشفاعة فإن الاستثناء الثانى ينادى على تكذيبهم ويسجل بافترائهم وما ظنك بقوم نبذوا كتاب الله لما روى لهم بعض النوابت عن عبد الله بن عمرو بن العاص ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد وذلك بعدما يلبثون فيها

---

(١) سورة ص آية ٨٢، ٨٣ .
(٢) الكشاف جـ ١ ص ١٤٤ و ١٤٥ .
(٣) سورة هود آية ١٠٧ .

أحقاباً . وقد بلغنى أن من الضلال من اغتر بهذا الحديث فاعتقد أن الكفار لا يخلدون فى النار وهذا ونحوه والعياذ بالله من الخذلان المبين زادنا الله هداية إلى الحق ومعرفة بكتابه وتنبيهاً على أن نعقل عنه ، ولئن صح هذا من ابن ابن العاص فمعناه أنهم يخرجون من حر النار إلى برد الزمهرير فذلك خلو جهنم وصفق أبوابها وأقول : ما كان لابن عمرو فى سيفيه ومقاتلته بهما على بن أبى طالب رضى الله عنه ما يشغله عن تسيير هذا الحديث[١] .

والآية : (ما يفتح اللهُ للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسكُ فلا مُرْسلَ له) يعقد نقاشاً فيها عن حديث يفسرها معزو لابن عباس هو مرفوض إن أوّل لنصرة الجبرية وهو مقبول من ابن عباس إن أوّل لنصرة الاعتزال بل هو عين ما عناه ابن عباس : « فإن قلت : فما تقول فيمن فسر الرحمة بالتوبة وعزاه إلى ابن عباس رضى الله عنهما ؟ قلت : إن أراد بالتوبة الهداية لها والتوفيق فيها — وهو الذى أراده ابن عباس رضى الله عنهما — إن قاله فمقبول وإن أراد أنه إن شاء أن يتوب العاصى تاب وإن لم يشأ لم يتب فمردود لأن الله تعالى يشاء التوبة أبداً ولا يجوز عليه ألا يشاءها »[٢] .

ومن مظاهر اعتزال الزمخشرى غير ما قدمنا — فى تفسيره — أنه جعل من تفسيره منبراً يسب فيه خصومه ويلعنهم فبدا معتزلياً متطرفاً فقد شفى حقده من الأمويين الذين اضطهدوا العلويين والأخيرين كانوا قد اتحدوا مع المعتزلة فى عصر الزمخشرى . ثم لا ننسى أن تفسير الكشاف مؤلف بإشارة الأمير العلوى ابن وهاس . لنر ما يقول الزمخشرى عند الآية : (فإن تنازعتم فى شىء فردّوه إلى الله والرسول) وعن أبى حازم أن مسلمة بن عبد الملك قال له : ألستم أمرتم بطاعتنا فى قوله : (وأولى الأمر منكم) . قال : أليس قد نزعت عنكم إذا خالفتم الحق بقوله : (فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول)[٣] وعند الآية : (قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذاً لا تمتعون

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٤٥٦ .

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٢٣٧ والآية ٢ من سورة فاطر .

(٣) الكشاف جـ ١ ص ٢١٢ والآية ٥٩ من سورة النساء .

إلا قليلا) وعن بعض المروانية أنه مر بحائط مائل فأسرع فتليت له هذه الآية فقال : ذلك القليل نطلب[١] ويقول فى الآية : (إن الذين يضلّون عن سبيل الله لهم عذابٌ شديد بما نَسوا يومَ الحساب) وعن بعض خلفاء بنى مروان أنه قال لعمر بن عبد العزيز أو للزهرى : هل سمعت ما بلغنا ؟ قال : وما هو ؟ قال : بلغنا أن الخليفة لا يجرى عليه القلم ولا تكتب عليه معصية . فقال يا أمير المؤمنين الخلفاء أفضل أم الأنبياء ثم تلا هذه الآية[٢] .

والزمخشرى وقد كان يتقلب فى أعطاف نعمة ابن وهاس الشريف العلوى أمير مكة يصم الأمويين بالبُغاة فى الآية : (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تُفلحون) . . وناهيك بما فى خطب أمير المؤمنين عليه السلام فى أيام صفين وفى مشاهده مع البغاة والخوارج من البلاغة والبيان ولطائف المعانى وبليغات المواعظ والنصائح دليلا على أنهم كانوا لا يشغلهم عن ذكر الله شاغل وإن تفاقم الأمر[٣] ومما هو من هذا الوادى أيضاً استشهاده بتفاسير العلويين وقراءاتهم على نطاق واسع[٤] .

إن الزمخشرى منذ اللحظة الأولى فى تفسيره يعلن أنه من الفئة الناجية العدلية ومذهبها هو الإسلام بعينه يقول فى الآية : (شهدَ الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط)[٥] فإن قلت ما المراد بأولى العلم الذين عظمهم

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٢٠٩ والآية ١٦ من سورة الأحزاب .

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٢٨٣ والآية ٢٦ من سورة ص .

(٣) الكشاف جـ ١ ص ٣٧٨ والآية ٤٥ من سورة الأنفال .

(٤) ينقل عن على كثيراً جداً مثلا الكشاف جـ ١ ص ٦٧ و ١١٧ و ١٥٧ و ١٦٠ و ١٦١ و ١٧١ و ١٧٦ و ١٨٢ و ٢٨٠ و ٣٤٧ . . إلخ . كما ينقل قراءاته مثلا الكشاف جـ ٢ ص ٤٣٠ و ٥١٩ و ٣٧٨ و ٣٧٩ ومواضع أكثر من أن تحصى . وينقل قراءة عن الحسن بن على جـ ٢ ص ٣٦٣ وينقل قراءات عن الحسين بن على جـ ٢ ص ٥٢٤ وتفاسير جـ ١ ص ٥٧٨ وينقل عن زيد بن على قراءات جـ ٢ ص ٤١٢ و ٤١٥ و ٤٢٢ و ٤٣٥ و ٢٢٥ و ٣٥٩ وتفاسير عنه جـ ٢ ص ٤٠٨ و ٤٥٧ وينقل تفاسير عن ابن الحنفية جـ ٢ ص ١١٦ و ٤٢٧ وينقل عن جعفر الصادق تفاسير جـ ١ ص ١٠١ و ١٠٢ و ١١٦ و ٣١٥ و ٤٢٧ ومواضع أخرى . ونحن هنا لا نحصى ولكن نمثل .

(٥) الآية ١٨ من سورة آل عمران .

هذا التعظيم حيث جمعهم معه ومع الملائكة فى الشهادة على وحدانيته وعدله ؟ قلت : هم الذين يثبتون وحدانيته وعدله بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة وهم علماء العدل والتوحيد . . وقوله : (إن الدين عند الله الإسلام) جملة مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى فإن قلت : ما فائدة هذا التوكيد ؟ قلت : فائدته أن قوله : (لا إله إلا هو) توحيد ، وقوله : (قائماً بالقسط) تعديل . فإذا أردفه قوله : (إن الدين عند الله الإسلام) فقد آذن أن الإسلام هو العدل والتوحيد وهو الدين عند الله وما عداه فليس عنده فى شىء من الدين ، وفيه أن من ذهب إلى تشبيه أو ما يؤدى إليه كإجازة الرؤية أو ذهب إلى الجبر الذى هو محض الجور لم يكن على دين الله الذى هو الإسلام وهذا بين جلى كما ترى[١] .

وإذن ما دام الاعتزال هو الإسلام فكل مناهض له كافر مقرون بالكفار فى رأى الزمخشرى . فالمجبرة مشركون . . . آية : (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدْنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرَّمنا من دونه من شىء) يعنى أنهم أشركوا بالله وحرموا ما أحل الله من البحيرة والسائبة وغيرهما ثم نسبوا فعلهم إلى الله وقالوا لو شاء لم نفعل وهذا مذهب المجبرة بعينه[٢] وأعداء الاعتزال عامة كفار : آية (ويوم القيامة ترى الذين كذَبوا على الله وجوههم مُسودّةٌ) وصفوه بما لا يجوز عليه تعالى وهو متعال عنه فأضافوا إليه الولد والشريك وقالوا : هؤلاء شفعاؤنا ، وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، وقالوا : الله أمرنا بها ، ولا يبعد عنهم قوم يسفهونه بفعل القبائح وتجويز أن يخلق خلقاً لا لغرض ويؤلم لا لعوض ، ويظلمونه بتكليف ما لا يطاق ، ويجسمونه بكونه مرئيًّا معايناً مدركاً بالحاسة ويثبتون له يداً وقدماً وجنباً متسترين بالبلكفه ويجعلون له أنداداً بإثباتهم معه قدماء[٣] .

حتى دعواته التى يدعو الله بها تترقرق فيها الروح الاعتزالية . يقول : اللهم فكما أدخلتنا فى أهل توحيدك فأدخلنا فى الناجين من وعيدك[٤] . والزمخشرى يختم

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ١٣٩ .
(٢) الكشاف جـ ١ ص ٥٢٥ و ٥٢٦ والآية ٣٥ من سورة النحل .
(٣) الكشاف جـ ٢ ص ٣٠٣ والآية ٦٠ من سورة الزمر .
(٤) الكشاف جـ ٢ ص ١٧٠ .

تفسيره لسورة الإخلاص بهذا الدعاء الذى يكمن وراءه الحماس للمذهب الاعتزالى . اللهم احشرنا فى زمرة العالمين بك العاملين لك القائلين بعدلك وتوحيدك الخائفين من وعيدك[١] .

الزمخشرى المفسر النقلى :

(ا) الصورة الثانية التى نراها للزمخشرى صورة مفسر أثرى ، فهو يجىء بالأسباب المعينة على تجلية النص وتفسيره ، منها معرفة أسباب النزول ، وهو قد يورد فى تفسيره سبب النزول ومناسبته مسنداً الرواية إلى أصحابها فيقول مثلا فى الآية : (إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها . .) عن الحسن وقتادة : لما ذكر الله الذباب والعنكبوت فى كتابه وضرب للمشركين به المثل ضحكت اليهود وقالوا ما يشبه هذا كلام الله فأنزل الله عز وجل هذه الآية[٢] .

وأحياناً نرى الزمخشرى يورد أسباب النزول مسبوقة بلفظة (قيل) أو (روى) أى لا يعزو الرواية إلى أصحابها ويوردها غفلا من رواتها فيقول فى الآية : (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) قيل كان أهل اليمن لا يتزودون ويقولون نحن متوكلون ونحن نحج بيت الله أفلا يطعمنا فيكونون كلاً على الناس فنزلت فيهم[٣] . ويقول فى الآية : (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم) روى أن عبد الله بن جحش وأصحابه حين قتلوا الحضرمى ظن قوم أنهم إن سلموا من الإثم فليس لهم أجر فنزلت[٤] .

ونراه مرة ثالثة يورد الآراء فى مناسبة نزول الآى مكتفياً بالعرض دون أن يفصل هو برأى . مثلا الآية : (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٥٦٧ .
(٢) الكشاف جـ ١ ص ٤٦ والآية ٢٦ من سورة البقرة .
(٣) الكشاف جـ ١ ص ٩٧ والآية ١٩٧ من سورة البقرة .
(٤) الكشاف جـ ١ ص ١٠٣ والآية ٢١٨ من سورة البقرة .

فلهم أجرُهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[١] قيل نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه حين تصدق بأربعين ألف دينار عشرة بالليل وعشرة بالنهار وعشرة فى السر وعشرة فى العلانية . وعن ابن عباس رضى الله عنهما نزلت فى على رضى الله عنه لم يملك إلا أربعة دراهم فتصدق بدرهم ليلا وبدرهم نهاراً وبدرهم سرًّا وبدرهم علانية . وقيل نزلت فى علف الخيل وارتباطها فى سبيل الله[٢] .

وقليلا ما نراه يفصل برأى بين آراء فى مناسبة النزول مثلا الآية : (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قُربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) قيل : قال صلى الله عليه وسلم لعمه أبى طالب : أنت أعظم الناس علىّ حقًّا وأحسنهم عندى يداً فقل كلمة تجب لك بها شفاعتى فأبى فقال : لا أزال أستغفر لك ما لم أنه عنه فنزلت . وقيل لما افتتح مكة سأل أى أبويه أحدث به عهداً فقيل أمك آمنة فزار قبرها بالأبواء ثم قام مستعبراً فقال : إنى استأذنت ربى فى زيارة قبر أمى فأذن لى واستأذنته فى الاستغفار لها فلم يأذن لى فنزلت . وهذا أصح لأن موت أبى طالب كان قبل الهجرة وهذا آخر ما نزل بالمدينة[٣] .

(ب) النقطة الثانية فى التفسير النقلى هى مسألة الناسخ والمنسوخ فى القرآن، وهى مسألة لها أثرها فى التفسير كما أن لها خطرها عند من يدافعون عن الإسلام كالمعتزلة ذلك أنها باب من الأبواب التى ولجها الطاعنون على الإسلام للتشكيك فيه، وللناسخ والمنسوخ حكمة يبديها عند الآية : (وإذا بدّلْنا آية مكان آية والله أعلمُ بما ينزلُ قالوا إنما أنت مُفتر بَل أكثرهم لا يعلمون)[٤] فيقول الزمخشرى : تبديل الآية مكان الآية هو النسخ والله تعالى ينسخ الشرائع بالشرائع لأنها مصالح وما كان مصلحة أمس يجوز أن يكون مفسدة اليوم

---

(١) الآية ٢٧٤ من سورة البقرة .
(٢) الكشاف جـ ١ ص ١٢٨ .
(٣) الكشاف جـ ١ ص ٤١١ و ٤١٢ . سورة التوبة ١١٣ .
(٤) سورة النحل آية ١٠١ .

وخلافه مصلحة . والله تعالى عالم بالمصالح والمفاسد فيثبت ما يشاء وينسخ ما يشاء بحكمته وهذا معنى قوله : (والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر) وجدوا مدخلا للطعن فطعنوا وذلك لجهلهم وبعدهم عن العلم بالناسخ والمنسوخ وكانوا يقولون إن محمداً يسخر من أصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غداً فيأتيهم بما هو أهون ولقد افتروا فقد كان ينسخ الأشق بالأهون والأهون بالأشق والأهون بالأهون والأشق بالأشق لأن الغرض المصلحة لا الهون والمشقة . فإن قلت : هل فى ذكر تبديل الآية بالآية دليل على أن القرآن إنما ينسخ بمثله ولا يصح بغيره من السنة والإجماع والقياس ؟ قلت : فيه أن قرآناً ينسخ بمثله : وليس فيه نفى نسخه بغيره على أن السنة المكشوفة المتواترة مثل القرآن فى إيجاب العلم فنسخه بها كنسخه بمثله وأما الإجماع والقياس والسنة غير المقطوع بها فلا يصح نسخ القرآن بها[1] ويقول فى موضع آخر مما يتصل بمسألة الناسخ والمنسوخ : قد تكون الآية متقدمة فى التلاوة وهى متأخرة فى التنزيل كقوله تعالى : (سيقول السفهاء) مع قوله : (قد نرى تقلب وجهك فى السماء)[2] .

فإذا ما عرض للآى يبين ناسخها من منسوخها نراه حيناً ينقل الآراء فى الناسخ والمنسوخ دون نقدها مكتفياً بعرضها مثلا هذه الآية من سورة المائدة : (يأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضواناً) قيل : هى محكمة وعن النبى صلى الله عليه وسلم : المائدة من آخر القرآن نزولا فأحلوا حلالها وحرموا حرامها . وقال الحسن : ليس فيها منسوخ . وعن أبى ميسرة : فيها ثمانى عشرة فريضة وليس فيها منسوخ . وقيل : هى منسوخة . وعن ابن عباس : كان المسلمون والمشركون يحجون جميعاً فنهى الله المسلمين أن يمنعوا أحداً عن حج البيت بقوله : (لا تحلوا) ثم نزل بعد ذلك (إنما المشركون نجس) (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله) وقال مجاهد والشعبى : (لا تحلوا) نسخ بقوله : (واقتلوهم

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٥٣٧ .

(٢) الكشاف جـ ١ ص ١١٥ . الآية الأولى ١٤٢ البقرة والثانية ١٤٤ البقرة .

حيث وجدتموهم)[١] .

وحيناً آخر يتبع منهجه العقلى فيفرض شخصيته الناقدة المتأملة . يقول فى الآية : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) وعن أبى العالية : نسختها آية القتال ولا حاجة إلى ذلك لأن الإغضاء عن السفهاء وترك المقابلة مستحسن فى الأدب والمروءة والشريعة وأسلم للعرض والورع[٢] . ويقول فى الآية : (واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل اللهُ لهن سبيلا) قيل معناه : فخلدوهن محبوسات فى بيوتكم وكان ذلك عقوبتهن فى أول الإسلام ثم نسخ بقوله تعالى : (الزانية والزانى) الآية . ويجوز أن تكون غير منسوخة بأن يترك ذكر الحد لكونه معلوماً بالكتاب والسنة ويوصى بإمساكهن فى البيوت بعد أن يُحْدَدْنَ صيانة لهن عن مثل ما جرى عليهن بسبب الخروج من البيوت والتعرض للرجال[٣] .

(ح) والزمخشرى يفسر القرآن بالقرآن تفسيراً ظاهرياً لا تأويل فيه فى الآى التى لا يمس ظاهرها أو باطنها الرأى الاعتزالى ولا مبادئه .

يقول الزمخشرى : « القرآن يفسر بعضه بعضاً »[٤] ويقول أيضاً : « أسد المعانى مادل عليه القرآن »[٥] ويفسر الآية : (يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون) أراد والتاركون الزكاة هم الظالمون فقال والكافرون للتغليظ كما قال فى آخر آية الحج : (ومن كفر) مكان ومن لم يحج ولأنه جعل ترك الزكاة من صفات الكفار

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٢٤٥ الآية الأولى ٢ من سورة المائدة والثانية ٢٨ من سورة التوبة والثالثة ١٧ من سورة التوبة والرابعة ٨٩ من سورة النساء .

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ١١٥ والآية ٦٣ من سورة الفرقان .

(٣) الكشاف جـ ١ ص ١٩٧ الآية الأولى ١٥ من سورة النساء والثانية ٢ من سورة النور .

(٤) الكشاف جـ ١ ص ٤٥٦ س ١٣ من أسفل .

(٥) الكشاف جـ ٢ ص ١٩٣ .

فى قوله : (. . وويل للمشركين . الذين لا يؤتون الزكاة . . .)[١] فتارك الحج كافر كما أن تارك الزكاة كافر : « والصفة فى الآيتين كلتيهما » للتغليظ ... ويفسر الآية : (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) نهوا أن يوالوا الكافرين لقرابة بينهم أو صداقة قبل الإسلام أو غير ذلك من الأسباب التى يتصادق بها ويتعاشر ، وقد كرر ذلك فى القرآن : (ومن يتولهم منكم فإنه منهم) (لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) (لا تجد قوماً يؤمنون بالله) الآية . والمحبة فى الله والبغض فى الله باب عظيم وأصل من أصول الإيمان[٢] ويفسر الآية : (ولقد صدقكم الله وعده) بوجهين تفسيرين قرآنيين . وعدهم الله النصر بشرط الصبر والتقوى فى قوله تعالى : (إن تصبروا وتتقوا يأتوكم من فورهم هذا ويمددكم) ويجوز أن يكون الوعد قوله تعالى : (سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) فلما فشلوا وتنازعوا لم يرعبهم[٣] .

(د) وكما أن القرآن يفسر بعضه بعضاً فإن السنة تفسره يقول الزمخشرى مفسراً الآية : (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء) فإن قلت : كيف كان القرآن تبياناً لكل شىء ؟ قلت : المعنى أنه بين كل شىء من أمور الدين حيث كان نصاً على بعضها وإحالة على السنة حيث أمر فيه باتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وطاعته . وقيل : (وما ينطق عن الهوى) وحثاً على الإجماع فى قوله : (ويتبع غير سبيل المؤمنين) وقد رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته اتباع أصحابه والاقتداء بآثارهم فى قوله صلى الله عليه وسلم : أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ؛ وقد اجتهدوا وقاسوا ووطئوا طرق القياس والاجتهاد فكانت السنة والإجماع والقياس والاجتهاد مستندة إلى تبيان الكتاب فمن ثم

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ١٢٠ الآية الأولى ٢٥٤ من سورة البقرة والآيتان الثانية والثالثة رقمهما ٦ و ٧ من سورة فصلت .

(٢) الكشاف جـ ١ ص ١٤٢ الآية الأولى ٢٨ من آل عمران والثانية ٥١ من المائدة وكذلك الثالثة ، الآية الرابعة ٢٢ المجادلة .

(٣) الكشاف جـ ١ ص ١٧٢ الآية الأولى ١٥٢ من آل عمران . والثانية ١٢٥ من آل عمران والثالثة ١٥١ من آل عمران .

كان تبياناً لكل شيء[١] .

ولذلك نرى الزمخشري يستشهد فى تفسيره بأحاديث الرسول وأعلام الصحابة والتابعين كابن عباس وابن مسعود ، ومقاتل ، والضحاك ، وعلى بن أبي طالب ، ومجاهد ، ، وعكرمة ، وعائشة ، وابن الكلبي ، وسفيان بن عيينة ، والفضيل ابن عياض ، وسعيد بن جبير ، وسعيد بن المسيب ، وزيد بن على ، وجعفر الصادق ، ومحمد بن كعب ، وسفيان الثورى ، والشعبي ، وابن جريج ، وعطاء بن أبي رباح ، والنخعى ، وعمر ، ومحمد بن سيرين ، وحذيفة ، وابن عمر ، وطاووس ، وعبد الله بن عمرو ، ومسروق ، ومالك بن دينار ، والزهرى ، ووهب ، والسدى وينقل عن غيرهم من الصحابة والتابعين على قلة وهو لا يلتزم بإيراد عنعنات الرواية بل يكتفى بإيراد الرواية مسبوقة بلفظة « وفى الحديث » أو قال الرسول كذا أو قال الصحابى فلان كذا لكن نلحظ أن أكثر الأسماء دوراناً فى تفسيره الحسن البصرى[٢] وتعتبره المعتزلة من رجالهم فقد عده المرتضى فى الطبقة الثالثة[٣] كذلك يدور بكثرة اسم قتادة بن دعامة السدوسى يعده المرتضى فى الطبقة الرابعة من المعتزلة ويقول فيه : لم يختلف فيه أنه من أهل العدل[٤] .

بل بعض من ذكرنا قبل ممن يستشهد بهم الزمخشرى فى تفسيره ينتحلهم المعتزلة . وقد عرضنا قبل لرأى المعتزلة فى أن تعاليمهم هى بعينها تعاليم الإسلام فمذهبهم يرقى فى نشأته الأولى إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم . وهم يعدون الخلفاء الأربعة وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وغيرهم كعبد الله بن

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٥٣٥ الآية الأولى ٨٩ النحل والثانية ٣ النجم والثالثة ١١٥ النساء .

(٢) مثلا الكشاف جـ ١ صفحات ٧٢ و ١١١ و ١٢٦ و ١٢٧ و ١٣٨ و ١٣٩ و ١٤٣ و ١٧١ و ١٨٦ و ١٩٣ و ١٩٧ . . إلخ و جـ ٢ صفحات ٩ و ١٠ و ١٤ و ١٥ و ٥٥ و ٦٠ و ٨٢ و ١٩٠ و ٢١٠ وهذا تمثيل لا حصر .

(٣) المنية والأمل ص ١٢ .

(٤) المنية والأمل ص ٢٤ . مثلا الكشاف جـ ١ ص ٧٢ و ٨٨ و ١١١ و ١٦٦ و ١٩٧ و ١٩٩ و ٢٦٧ و ٢٨٥ و ٣٢٥ و ٣٤٣ و جـ ٢ ص ١٠ و ١٤ و ١٥ و ١٨ و ٢١ و ٢٨ و ٦٠ و ٨٢ و ١١٦ . . . إلخ .

عمر وأبى الدرداء من الطبقة [الأولى من المعتزلة][١] والحسنان عندهما من الطبقة الثانية من المعتزلة[٢] وكذلك سعيد بن المسيّب وطاووس اليمانى من نفس الطبقة[٣] ومحمد بن الحنفية وزيد بن على ومحمد بن سيرين من رجال الطبقة الثالثة من المعتزلة[٤] .

(هـ) وهذه التفاسير الأثرية أو النقلية قل أن يقف منها موقف الناقد الذى يرفض كل ما لا يدل عليه المعنى الظاهرى للنص القرآنى . ومن هذه الوقفات النقدية القليلة قوله فى الآية : (إذ يُريكهمُ اللهُ فى منامك قليلا) وعن الحسن : فى منامك فى عينك لأنها مكان النوم كما قيل للقطيفة المنامة لأنه ينام فيها وهذا تفسير فيه تعسف وما أحسب الرواية صحيحة فيه عن الحسن وما يلائم علمه بكلام العرب وفصاحته[٥] وقوله فى الآية : (ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) فتحتج أنت عليهم بأنك بلغت فكذبوا فاجتهدت فى الدعوة فلجوا فى العناد ويعتذرون بما لا طائل تحته تقول الأتباع : أطعنا سادتنا وكبراءنا وتقول السادات : أغوتنا الشياطين وآباؤنا الأقدمون ... قال عبد الله بن عمر : لقد عشنا برهة من دهرنا ونحن نرى أن هذه الآية أنزلت فينا وفى أهل الكتاب قلنا : كيف نختصم ونبينا واحد ودِيننا واحد وكتابنا واحد حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف فعرفت أنها نزلت فينا . وقال أبو سعيد الخدرى : كنا نقول ربنا واحد ونبينا واحد ودِيننا واحد فما هذه الخصومة؟ فلما كان يوم صفين وشد بعضنا على بعض بالسيوف قلنا : نعم هو هذا . وعن إبراهيم النخعى قالت الصحابة : ما خصومتنا ونحن إخوان؟ فلما قتل عثمان رضى الله عنه قالوا : هذه خصومتنا . وعن أبى العالية : نزلت فى أهل القبلة . والوجه الذى يدل عليه كلام الله هو ما قدمت . ألا ترى إلى قوله : (فمن أظلمُ ممن كذَبَ على الله)

---

(١) المنية والأمل للمرتضى ص ٧ .
(٢) المنية والأمل للمرتضى ص ١٠ .
(٣) المنية والأمل للمرتضى ص ١١ .
(٤) المنية والأمل للمرتضى ص ١١ .
(٥) الكشاف جـ ١ ص ٣٧٨ . والآية ٤٣ من سورة الأنفال .

وقوله تعالى : (والذى جاء بالصدق وصدق به) وما هو إلا بيان وتفسير للذين يكون بينهم الخصومة[١] .

(و) ومما هو من وادى تفسير الزمخشرى النقلى موقفه مما يؤثر من تفاسير قصصية للآى القرآنية وهو موقف يفترق وبعض أسلافه من ناحية ويلتقى وإياهم فى أخرى . يختلف وبعض أسلافه فى التفسير القصصى الذى لا يمس آراء الاعتزال . فبعض المعتزلة يقفون من هذا التفسير القصصى موقف الشاك الناقد الساخر فهذا النظام ينقد المفسرين القصصيين يقول : « لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين وإن نصبوا أنفسهم للعامة وأجابوا فى كل مسألة فإن كثيراً منهم يقول بغير رواية على غير أساس وكلما كان المفسر أغرب عندهم كان أحب إليهم وليكن عندكم عكرمة والكلبى والسدى والضحاك ومقاتل بن سليمان وأبو بكر الأصم فى سبيل واحدة فكيف أثق بتفسيرهم وأسكن إلى صوابهم . . . »[٢] ونلحظ هنا أن أبا بكر الأصم معتزلى ولكنه غير موثق لمنزعه القصصى فى التفسير فربما كان يميل إلى الإغراب والخيال . وهذا الجاحظ يسخر بالتفسير القصصى الأسطورى فيقول : « وبعض أصحاب التفسير يزعم أن الله عاقب الحية حين أدخلت أبليس فى جوفها حتى كلم آدم وحواء وخدعهما على لسانها بعشر خصال منها شق اللسان قالوا : لذلك ترى الحية إذا ضربت للقتل كيف تخرج لسانها لترى الضارب عقوبة الله كأنها تسترحم . وصاحب هذا التفسير لم يقل ذلك إلا لحية كانت عنده تتكلم ولولا ذلك لأنكر آدمُ كلامها وإن كان إبليس لا يحتال إلا من جهة الحية ولا يحتال بشىء غير مموه ولا مشبه »[٣] .

إن ما لا يمس عقيدة أو يضار رأياً اعتزالياً ولا يطعن فى عصمة نبى هذا كله يتسمح فيه الزمخشرى ويورده . ولو كان أشبه بالأسطورة والخيال . يقول

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٢٩٩ الآية الأولى ٣١ من سورة الزمر والثانية ٣٢ من سورة الزمر والثالثة ٣٣ من سورة الزمر .

(٢) الحيوان للجاحظ جـ ١ ص ٣٤٣ – ٣٤٦ (أمثلة لتفاسير مَنْ نقدهم النظام) .

(٣) الحيوان للجاحظ جـ ٤ ص ١٦٤ .

فى الآية : (فألقى عصاهُ فإذا هى ثعبانٌ مُبينٌ) روى أنه كان ثعباناً ذكراً أشعر فاغراً فاه بين لحييه ثمانون ذراعاً وضع لحيه الأسفل فى الأرض ولحيه الأعلى على سور القصر ثم توجه نحو فرعون ليأخذه فوثب فرعون من سريره وهرب وأحدث ولم يكن أحدث قبل ذلك[١] ... ويقول عند الآية : (حتى إذا بلغَ مطلع الشمس وجدها تطلعُ على قوم لم نجعل لهم من دونها سترًا) .. وعن بعضهم : خرجت حتى جاوزت الصين فسألت عن هؤلاء فقيل : بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة ، فبلغتهم فإذا أحدهم يفرش أذنه ويلبس الأخرى ومعى صاحب يعرف لسانهم فقالوا له جئتنا تنظر كيف تطلع الشمس . قال : فبينا نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة فغشى علىّ ثم أفقت وهم يمسحوننى بالدهن فلما طلعت الشمس على الماء إذا هى فوق الماء كهيئة الزيت فأدخلونا سرباً لهم فلما ارتفع النهار خرجوا إلى البحر فجعلوا يصطادون السمك ويطرحونه فى الشمس فينضج لهم[٢] .

ويقول : روى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال سليمان : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله ولم يقل إن شاء الله فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل . والذى نفسى بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرساناً أجمعون فذلك قوله : (ولقد فتنا سُليمان)[٣] وهذا ونحوه مما لا بأس به[٤] .

والنقول القصصية التى تطعن عصمة الأنبياء وتجرحها فإن الزمخشرى يزيفها ويأباها . يقول : وأما ما يروى من حديث الخاتم والشيطان وعبادة الوثن فى بيت سليمان فالله أعلم بصحته ، حكوا : أن سليمان بلغه خبر صيدون وهى مدينة فى بعض الجزائر وأن بها ملكاً عظيم الشأن لا يقوى عليه لتحصنه بالبحر فخرج إليه تحمله الريح حتى أناخ بها بجنوده من الجن والإنس فقتل ملكها وأصاب بنتاً

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٣٤٢ الآية ٣٢ من سورة الشعراء .
(٢) الكشاف جـ ١ ص ٥٧٩ . الآية ٩٠ سورة الكهف .
(٣) الآية ٣٤ ص .
(٤) الكشاف جـ ٢ ص ٢٨٤ .

له اسمها جرادة من أحسن الناس وجهاً فاصطفاها لنفسه وأسلمت وأحبها وكانت لا يرقأ دمعها حزناً على أبيها فأمر الشياطين فمثلوا لها صورة أبيها فكستها مثل كسوته وكانت تغدو إليها وتروح مع ولائدها يسجدن له كعادتهن فى ملكه فأخبر آصف سليمان بذلك فكسر الصورة وعاقب المرأة ثم خرج وحده إلى فلاة وفرش له الرماد فجلس عليه تائباً إلى الله متضرعاً وكانت له أم ولد يقال لها أمينة إذا دخل للطهارة أو لإصابة امرأة وضع خاتمه عندها وكان ملكه فى خاتمه فوضعه عندها يوماً وأتاها الشيطان صاحب البحر وهو الذى دل سليمان على الماس حين أمر ببناء بيت المقدس واسمه صخر على صورة سليمان فقال يا أمينة خاتمى فتختم به وجلس على كرسى سليمان وعكفت عليه الطير والجن والإنس وغير سليمان عن هيئته فأتى أمينة لطلب الخاتم فأنكرته وطردته فعرف أن الخطيئة قد أدركته فكان يدور على البيوت يتكفف فإذا قال : أنا سليمان حثوا عليه التراب وسبوه ثم عمد إلى السماكين ينقل لهم السمك فيعطونه كل يوم سمكتين فمكث على ذلك أربعين صباحاً عدد ما عُبدَ الوثنُ فى بيته فأنكر آصف وعظماء بنى إسرائيل حكم الشيطان وسأل آصف نساء سليمان فقلن: ما يدع امرأة منا فى دمها ولا يغتسل من جنابة . وقيل: بل نفذ حكمه فى كل شىء إلا فيهن ثم طار الشيطان وقذف الخاتم فى البحر فابتلعته سمكة ووقعت السمكة فى يد سليمان فبقر بطنها فإذا هو بالخاتم فتختم به ووقع ساجداً ورجع إليه ملكه وجاب صخرة لصخر فجعله فيها وسد عليه بأخرى ثم أوثقهما بالحديد والرصاص وقذفه فى البحر . وقيل لما افتتن كان يسقط الخاتم من يده لا يتماسك فيها فقال له آصف إنك لمفتون بذنبك والخاتم لا يقر فى يدك فتب إلى الله عز وجل .

ولقد أبى العلماء المتقنون قبوله وقالوا هذا من أباطيل اليهود والشياطين لا يتمكنون من مثل هذه الأفاعيل وتسليط الله إياهم على عباده حتى يقعوا فى تغيير الأحكام وعلى نساء الأنبياء حتى يفجروا بهن قبيح ؛ وأما اتخاذ التماثيل

فيجوز أن تختلف فيه الشرائع ألا ترى إلى قوله: (من محاريب وتماثيل)[١]؛ وأما السجود للصورة فلا يظن بنبي الله أن يأذن فيه وإذا كان بغير علمه فلا عليه[٢].

الزمخشري اللغوي :

(ا) صورة أخرى نلمحها من تفسير الكشاف عن الزمخشري ؛ صورة العالم اللغوي . فهو يعرض اللفظ القرآني عرضاً عرفته العرب في معاني منطقها لأن القرآن عربي ومعانيه معاني كلام العرب . يقول في الآية [١٧٨ البقرة] : (يأيها الذين آمنوا كتبَ عليكم القصاصُ في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عُفيَ له من أخيه شيء فاتباعٌ بالمعروف وأداءٌ إليه بإحسان) . فإن قلت : هلا فسرت عُفيَ بترك حتى يكون شيء في معنى المفعول به ؟ قلت : لأن عفا الشيء بمعنى تركه ليس يثبت ولكن أعفاه ومنه قوله عليه السلام : واعفوا اللحى . فإن قلت : فقد ثبت قولهم عفا أثره إذا محاه فهلا جعلت معناه فمن محى له من أخيه شيء ؟ قلت : عبارة قلقة في مكانها والعفو في باب الجنايات عبارة متداولة مشهورة في الكتاب والسنة واستعمال الناس فلا يعدل عنها إلى أخرى قلقة نابية عن مكانها ، وترى كثيراً ممن يتعاطى هذا العلم يجترئ إذا أعضل عليه تخريج وجه للمشكل من كلام الله على اختراع لغة وادعاء على العرب ما لا تعرفه وهذه جرأة يستعاذ بالله منها[٣] .

(ب) وهو يسير على نهج اللغويين الأوائل الذين كانوا يسمعون من العرب ومن سماعهم يفسرون كلام الله وهكذا فعل الزمخشري الذي طاف بأنحاء أرض العرب وصحاريها . يقول في الآيتين : (ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهلهُ من الكرب العظيم ، ونصرناهُ من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سَوْءٍ فأغرقناهم أجمعين) [الأنبياء ٧٦ و ٧٧] . . هو نصر الذي مطاوعه انتصر وسمعت هذليًّا يدعو على سارق : اللهم انصرهم منه

---

(١) ١٣ سورة سبأ .

(٢) الكشاف ج ٢ ص ٢٨٤ و ٢٨٥ .

(٣) الكشاف ج ١ ص ٨٨ .

أى اجعلهم منتصرين منه[١] ويقول فى الآيتين : (وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة) [٢٢ ، ٢٣ من القيامة] . . من قول الناس أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بى تريد معنى التوقع والرجاء ومنه قول القائل :

وإذا نظرت إليك من ملك والبحر دونك زدتنى نعما

وسمعت سروية مستجدية بمكة وقت الظهر حين يغلق الناس أبوابهم ويأوون إلى مقائلهم تقول عيينتى نويظرة إلى الله وإليكم[٢] . ولكنه خالف اللغويين إذ وسع دائرة استشهاده اللغوى فهم قد حددوا من يستشهد بكلامهم فى اللغة حتى عصر جرير ولكن الزمخشرى يستشهد بأبى تمام كثيراً فى كتابه يبين عن رأيه فى ذلك إذ يقول فى الآية : (وإذا أظلم عليهم قاموا . .) [٢٠ البقرة] وأظلم يحتمل أن يكون غير متعد وهو الظاهر . وأن يكون متعدياً منقولا من ظَلِمَ الليلُ وتشهد له قراءة يزيد بن قطيب : أظلم على ما لم يسم فاعله وجاء فى شعر حبيب بن أوس :

هما أظلما حالىَّ ثمت أجليا ظلاميهما عن وجه أمرد أشنب

وهو وإن كان محدثاً لا يستشهد بشعره فى اللغة فهو من علماء العربية فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه ألا ترى إلى قول العلماء الدليل عليه بيت الحماسة فيقتنعون بذلك لوثوقهم بروايته وإتقانه[٣] .

(ح) وحين عالج اللفظ القرآنى رأيناه يحاول أن يلمح الأصل الحسى له وينبه إليه . يقول فى الآية : (ونحن نُسبحُ بحمدكَ ونقدِّس لك) والتسبيح تبعيد الله من السوء كذلك تقديسه من سبح فى الأرض والماء وقدس فى الأرض إذا

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٥٠ .

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٥٠٩ . وأمثلة كثيرة جدا فى أساس البلاغة للزمخشرى لسماعياته من العرب مادة (د ب و) جـ ١ وص ٣١٩ (ر ن ح) جـ ١ ص ٣٧٥ و (ر ى ن) جـ ١ ص ٣٩٠ و (ز ف ف) جـ ١ ص ٤٠٢ و جـ ٢ ص ١٠٧ (ع ر د) و جـ ٢ ص ١٢٢ (ع ض ب) و جـ ٢ ص ١٥٠ (ع ه د) . . إلخ .

(٣) الكشاف جـ ١ ص ٣٦ .

ذهب فيها وأبعد[١] . ويقول فى الآية : (لا تثريب عليكم) [آية ٩٢ يوسف] لا تأنيب عليكم ولا عتب وأصل التثريب من الثربُ وهو الشحم الذى هو غاشية الكرش ومعناه إزالة الثرْب كما أن التجليد والتقريع إزالة الجلد والقرع لأنه إذا ذهب كان ذلك غاية الهزال والعُجف الذى ليس بعده فضرب مثلا للتقريع الذى يمزق الأعراض ويذهب بماء الوجوه[٢] .

(د) والزمخشرى يفرق بين لفظين قرآنيين مترادفين تفرقة معنوية دقيقة . يقول فى الآية : (فلما أضاءت ما حوله ذهب اللهُ بنورهم) [١٧ البقرة]والنور ضوءها « أى النار » وضوء كل نيِّر وهو نقيض الظلمة واشتقاقها من نار ينور إذا نفر لأن فيها حركة واضطراباً والنور مشتق منها والإضاءة فرط الإنارة ومصداق ذلك قوله : (هو الذى جعل الشمس ضياءً والقمرَ نوراً)[٣] [٥ يونس] ويقول فى الآية : (لا يمسُّنا فيها نَصَبٌ ولا يمسنا فيها لُغوب) [٣٥ فاطر] فإن قلت : ما الفرق بين النصب واللغوب ؟ قلت : النصب التعب والمشقة التى تصيب المنتصب للأمر المزاول له وأما اللغوب فما يلحقه من الفتور بسبب النصب فالنصب نفس المشقة والكلفة واللغوب نتيجته وما يحدث منه من الكلال والفترة[٤].

(هـ) والزمخشرى لغوى ذو حاسة لغوية دقيقة انظر قوله فى لفظة(تقشعر) من الآية: (الله نزلَ أحسنَ الحديث كتاباً مُتشابهاً مثانىَ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم . . .) [٢٣ الزُّمَر] اقشعر الجلد إذا تقبض تقبضاً شديداً وتركيبه من حروف القشع وهو الأديم اليابس مضموماً إليها حرف رابع وهو الراء ليكون رباعيًّا ودالا على معنى زائد يقال اقشعر جلده من الخوف وقف شعره وهو مثل فى شدة الخوف[٥] .

ويقول فى الآية : (... مُذَبذَبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) ...

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٥١ .
(٢) الكشاف جـ ١ ص ٤٨٦ .
(٣) الكشاف جـ ١ ص ٣١ .
(٤) الكشاف جـ ٢ ص ٢٤٥ .
(٥) الكشاف جـ ٢ ص ٢٩٧ .

[١٤٣النساء] وحقيقة المذبذب الذى يذب عن كلا الجانبين أى يذاد ويدفع فلا يقر فى جانب واحد كما قيل فلان يرمى به الرحوان إلا أن الذبذبة فيها تكرير ليس فى الذب كأن المعنى كلما مال إلى جانب ذب عنه[١] .

وفى (تأذن) من الآية : (وإذ تأذّنَ ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم) [٧ إبراهيم] يقول ومعنى تأذن ربكم أذن ربكم ونظير تأذن وأذن توعد وأوعد وتفضل وأفضل ولا بد فى تفعل من زيادة معنى ليس فى أفعل كأنه قيل وإذ أذن ربكم إيذاناً بليغاً تنتفى عنده الشكوك وتنزاح الشبهة[٢] .

الزمخشرى النحوى :

(ا) وأما عن شخصية الزمخشرى كعالم نحوى فهو حين يعرض للقرآن من الوجهة الإعرابية لا ينساق وراء صناعته النحوية كالنحويين فيحيف على جانب المعنى وإنما يجعل همه المعنى حيثما كان هناك تقدير إعرابى فنراه يبين الأحكام النحوية وما وراءها من فروق معنوية . فهو يعالج النحو القرآنى من الناحية التى تخدم تفسير القرآن وتنسق معانيه . يقول فى الآية : (وإن يقاتلوكم يُوَلُّوكم الأدبارَ ثم لا يُنصرون) مناقشاً لم رفعت (ينصرون) ولم لم تجزم وتأثر المعنى فى الحالتين ثم يبين علام عطفت (ينصرون) ليدرجها فى نسقها المعنوى يقول : فإن قلت : هلا جزم المعطوف فى قوله : (ثم لاينصرون) قلت : عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداء كأنه قيل : ثم أخبركم أنهم لا ينصرون . فإن قلت فأى فرق بين رفعه وجزمه فى المعنى ؟ قلت : لو جزم لكان نفى النصر مقيداً بمقاتلتهم كتولية الأدبار وحين رفع كان نفى النصر وعداً مطلقاً كأنه قال : ثم شأنهم وقصتهم التى أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية أنهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوة لا ينهضون بجناح ولا يستقيم لهم أمر وكان كما أخبر من حال بنى قريظة والنضير وبنى قينقاع ويهود خيبر فإن قلت :

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٢٣٥ .
(٢) الكشاف جـ ١ ص ٥٠١ .

فما الذى عطف عليه هذا الخبر ؟ قلت جملة الشرط والجزاء كأنه قيل : أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا ثم أخبركم أنهم لا ينصرون[١] .

(ب) وقد تمتد رعاية الزمخشرى للنسق المعنوى فى الآية الواحدة إلى رعايته للتناسب المعنوى فى القرآن كله فى الآية : (وإنْ كنتم فى رَيب مما نَزَّلْنا على عبدنا فأتوا بسورة منْ مثله)[٢] سيعرض وجهين لمرجع الضمير فى (مثله) وهو إما (لما نزلنا) أو (لعبدنا) ويفضل منهما الوجه الذى يتفق مع المعانى القرآنية يقول : (من مثله) متعلق بسورة صفة لها أى بسورة كائنة من مثله والضمير (لما نزلنا) أو (لعبدنا) ويجوز أن يتعلق بقوله (فأتوا) والضمير للعبد . . ورد الضمير إلى المنزل أوجه لقوله تعالى : (فأتوا بسورة مثله)[٣] (فأتوا بعشر سور مثله)[٤] (على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله)[٥] ولأن القرآن جدير بسلامة الترتيب والوقوع على أصح الأساليب والكلام مع رد الضمير إلى المنزل أحسن ترتيباً وذلك أن الحديث فى المنزل لا فى المنزل عليه وهو مسوق إليه ومربوط به فحقه أن لا يفك عنه برد الضمير إلى غيره . ألا ترى أن المعنى وإن ارتبتم فى أن القرآن منزل من عند الله فهاتوا أنتم مما يماثله ويجانسه وقضية الترتيب لو كان الضمير مردوداً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقال وإن ارتبتم فى أن محمداً منزل عليه فهاتوا قرآناً من مثله ولأنهم إذا خوطبوا جميعاً وهم الجم الغفير بأن يأتوا بطائفة يسيرة من جنس ما أتى به واحد منهم كان أبلغ فى التحدى من أن يقال لهم ليأت واحد آخر بنحو ما أتى به هذا الواحد ولأن هذا التفسير هو الملائم لقوله : (وادعوا شهداءكم)[٦] .

إن المعانى القرآنية وتناسقها يضعها الزمخشرى نصب عينيه حينما يعرض

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ١٦٢ والآية ١١١ من آل عمران .
(٢) الآية ٢٣ من البقرة .
(٣) الآية ٣٨ من يونس .
(٤) الآية ١٣ من هود .
(٥) الآية ٨٨ من الإسراء .
(٦) الكشاف جـ ١ ص ٤٠ .

لحكم إعرابى، يقول عند الآية : (ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون) (موسى الكتاب) أى قوم موسى التوارة (لعلهم) يعملون بشرائعها ومواعظها كما قال: (على خوف من فرعون وملئهم) يريد آل فرعون وكما يقولون هاشم وثقيف وتميم ويراد قومهم . ولا يجوز أن يرجع الضمير فى (لعلهم) إلى فرعون وملئه لأن التوراة إنما أوتيها بنو إسرائيل بعد إغراق فرعون وملئه (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعدما أهلكنا القرون الأولى)[١]. وفى الآية: (ولا تقولوا ثلاثة) يقول : (ثلاثة) خبر مبتدأ محذوف فإن صحت الحكاية عنهم أنهم يقولون هو جوهر واحد ثلاثة أقانيم أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم روح القدس وأنهم يريدون بأقنوم الأب الذات وبأقنوم الابن العلم وبأقنوم روح القدس الحياة فتقديره الله ثلاثة وإلا فتقديره الآلهة ثلاثة . والذى يدل عليه القرآن التصريح منهم بأن الله والمسيح ومريم ثلاثة آلهة وأن المسيح ولد الله من مريم . ألا ترى إلى قوله : (أأنتَ قُلتَ للناس اتخذونى وأمىَ إلهين منْ دون الله) (وقالت النصارى المسيحُ ابن الله) والمشهور المستفيض عنهم أنهم يقولون فى المسيح لاهوتية وناسوتية من جهة الأب والأم ويدل عليه قوله: (إنما المسيحُ عيسى بن مُريم)[٢] فأثبت أنه ولد لمريم اتصل بها اتصال الأولاد بأمهاتها وإن اتصاله بالله تعالى من حيث إنه رسوله وإنه موجود بأمره وابتداعه جسداً حيًّا من غير أب فنفى أن يتصل به اتصال الأبناء بالآباء وقوله: (سبحانه أن يكون له ولد) [١٧١ النساء] وحكايهُ الله أوثق من حكاية غيره[٣] . وما قيل من روايات قصصية عن الحجر المضروب بعصا موسى يقسمها الزمخشرى قسمين يستتبع كل قسم حكم إعرابى وما عرض للنحو هنا إلا لأنه يخدم تفسير الآية . فيقول فى الآية: (اضرب بعصاك الحجر)[٤] واللام إما للعهد والإشارة إلى حجر معلوم .

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٤٠ .

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٧٤ . الآية الأولى ٤٩ من سورة المؤمنون والثانية ٨٣ من يونس والثالثة ٤٣ من القصص .

(٣) الكشاف جـ ١ ص ٢٤١ الآية الأولى ١٧١ من النساء والثانية ١١٦ المائدة . والثالثة ٣٠ التوبة والرابعة ١٧١ من النساء .

(٤) الآية ٦٠ البقرة .

فقد روى أنه حجر طورى حمله معه وكان حجراً مربعاً له أربعة أوجه كانت تنبع من كل وجه ثلاث أعين لكل سبط عين تسيل فى جدول إلى السبط الذى أمر أن يسقيهم وكانوا ستمائة ألف وسعة المعسكر اثنا عشر ميلا وقيل أهبطه آدم من الجنة فتوارثوه حتى وقع إلى شعيب فدفعه إليه مع العصا . وقيل : هو الحجر الذى وضع عليه ثوبه حين اغتسل إذ رموه « بالأدرة » ففر به فقال له جبريل يقول لك الله تعالى : ارفع هذا الحجر فإن لى فيه قدرة ولك فيه معجزة فحمله فى مخلاته . وإما للجنس أى ضرب الشىء الذى يقال له الحجر . وعن الحسن : لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه قال : وهذا أظهر فى الحجة وأبين فى القدرة . وروى أنهم قالوا كيف بنا لو أفضينا إلى أرض ليست فيها حجارة فحمل حجراً فى مخلاته فحيثما نزلوا ألقاه . وقيل : كان يضربه بعصاه فينفجر ويضربه بها فييبس فقالوا : إن فقد موسى عصاه متنا عطشاً فأوحى إليه لا تقرع الحجارة وكلمها تطعك لعلهم يعتبرون[1] .

فالنحو عنده خادم للمعنى . يقول الزمخشرى فى الآية: (يأيها الذين آمنوا شهادةُ بينكم إذا حضرَ أحدكمُ الموتُ حين الوصيّة اثنان ذوَا عدل منكم) إذا حضر ظرف للشهادة ، وحين الوصية بدل منه . وفى إبداله منه دليل على وجوب الوصية وأنها من الأمور اللازمة التى ما ينبغى أن يتهاون بها مسلم ويذهل عنها[2] .

فإذا أخل الحكم الإعرابى بالمعنى رفضه . فعند الآية : (. . . والذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يَقتروا وكانَ بين ذلك قَواماً) يقول وأجاز الفراء أن يكون (بين ذلك) اسم كان على أنه مبنى لإضافته إلى غير متمكن كقوله :

• لم يمنع الشرب منها غير أن نطفت •

وهو من جهة الإعراب لا بأس به ولكن المعنى ليس يقوى لأن ما بين الإسراف والتقتير قوام لا محالة فليس فى الخبر الذى هو معتمد الفائدة فائدة[3]

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٥٨ و ٥٩ .

(٢) الكشاف جـ ١ ص ٢٨٠ . الآية ١٠٦ المائدة .

(٣) الكشاف جـ ٢ ص ١١٥ . الآية ٦٧ الفرقان .

ويعرب الآية : (ذلكم اللهُ رَبُّكم لهُ الملكُ) فيقول (ذلكم) مبتدأ و (الله ربكم له الملك) أخبار مترادفة أو (الله ربكم) خبران و (له الملك) جملة مبتدأة واقعة فى قران قوله: (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير) [١٣ فاطر] ويجوز فى حكم الإعراب إيقاع اسم الله صفة لاسم الإشارة أو عطف بيان وربكم خبراً لولا أن المعنى يأباه[١] ، ولعل رفضه هذا الوجه الإعرابى لما يجره من الإشارة إلى لفظ الجلالة .

لذلك ينأى الزمخشرى بالقرآن عن تعسف التأويلات النحوية التى لا يفيد التفسير القرآنى منها محصولا ففى الآى : (إنا زَيّنا السماءَ الدنيا بزينة الكواكب . وحفظاً من كل شيطان مارد . لا يسَّمعون إلى الملأ الأعلى ويُقْذَفُون من كل جانب ، دُحوراً ولهم عذابٌ واصب)[٢] يقول : فإن قلت : هل يصح قول من زعم أن أصله لئلا يسمعوا فحذفت اللام كما حذفت فى قولك جئتك أن تكرمنى فبقى أن لا يسمعوا فحذفت أن وأهدر عملها كما فى قول القائل :

ألا أيهذا الزاجرى أحضرَ الوغى

قلت : كل واحد من هذين الحرفين غير مردود على انفراد فأما اجتماعهما فمنكر من المنكرات على أن صون القرآن عن مثل هذا التعسف واجب[٣] .

(ح) والزمخشرى يستغل النحو فى الدفاع عن القرآن والنصح عنه من طاعنين يرون فيه ما لا يضطرد والقاعدة النحوية فى جفافها واضطرادها على وتيرة واحدة . يقول الزمخشرى فى الآية : (لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاةَ)[٤] المقيمين نصب على المدح لبيان فضل الصلاة وهو باب واسع قد كسره سيبويه على أمثلة وشواهد لا يلتفت إلى ما زعموا من وقوعه لحناً فى خط المصحف وربما التفت إليه من لم ينظر فى الكتاب ولم يعرف مذاهب العرب وما لهم فى النصب على

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٢٤١ . الآية ١٣ فاطر .
(٢) آيتا ٦ – ٩ من الصافات .
(٣) الكشاف جـ ٢ ص ٢٦٠ .
(٤) سورة النساء آية ١٦٢ .

الاختصاص من الافتنان وغبى عليه أن السابقين الأولين الذين مثلهم فى التوارة ومثلهم فى الإنجيل كانوا أبعد همة فى الغيرة على الإسلام وذب المطاعن عنه من أن يتركوا فى كتاب الله ثُلْمة ليسدها من بعدهم وخَرْقاً يرفوه من يلحق بهم[١] .

الزمخشرى العالم بالقراءات[٢] :

(ا) وقد استعان الزمخشرى بالقراءة على التفسير الذى يفسر فهى تقوى منه وتلقى الضوء عليه . فيعضد تفسير الآية : (للذين يُؤلون من نسائهم تربصُ أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم)[٣] بقراءة لعبد الله يقول : فإن فاءوا فى الأشهر بدليل قراءة عبد الله فإن فاءوا فيهن[٤]، ويعتمد على قراءة فى تقوية الوجه التفسيرى الرابع للآية : (وإذْ أخذ اللهُ ميثاقَ النبيين لَما آتيتكمْ منْ كتاب وحكمة ثم جاءكم رسولٌ مصدقٌ لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنهُ)[٥] فيقول . . والرابع أن يراد أهل الكتاب وأن يرد على زعمهم تهكماً بهم لأنهم كانوا يقولون نحن أولى بالنبوة من محمد لأنا أهل الكتاب ومنا كان النبيون وتدل عليه قراءة أبى وابن مسعود : وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب[٦] وهذه الآية يستنصر لأحدى وجوهها التفسيرية بقراءة : (وكم أهلكنا قبلَهم منْ قَرن هم أشدُّ منهم بطشاً فنقبوا فى البلاد هل من محَيص)[٧] ويجوز أن يراد

---

(١) الكشاف ج ١ ص ٢٣٩ . وفى هذه الآية يقول أبو عبيدة فى المجاز ورقة ٣٩ : العرب تخرج من الرفع إذا كثر الكلام إلى النصب ثم تعود بعد إلى رفع . قال خرنق :

لا يبعدن قومى الذين هم ... سم العداة وآفة الجزر
النازلين بكل معترك ... والطيبون معاقد الأزر

(٢) تراجع ص ١٤١ ، ١٤٢ من هذا البحث .

(٣) سورة البقرة آية ٢٢٦ .

(٤) الكشاف ج ١ ص ١٠٧ .

(٥) آية ٨١ من آل عمران .

(٦) الكشاف ج ١ ص ١٥٣ .

(٧) الآية ٣٦ من سورة ق .

فنقب أهل مكة فى أسفارهم ومسايرهم فى بلاد القرون فهل رأوا لهم محيصاً حتى يؤملوا مثله لأنفسهم الدليل على صحته قراءة من قرأ فنقبوا على الأمر كقوله تعالى: (فسيحوا فى الأرض)[١].

(ب) والزمخشرى يبين فرق ما بين القراءات من حيث اللغة إذ لذلك – ضرورة – أثر فى اختلاف معنى الآى. يقول فى الآية : (وتحملُ أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنْفُس . .) قرئ بشِق الأنفس بكسر الشين وفتحها وقيل هما لغتان فى معنى المشقة وبينهما فروق وهو أن المفتوح مصدر شق الأمر عليه شقًّا وحقيقته راجعة إلى الشق الذى هو الصدع وأما الشق فالنصف كأنه يذهب نصف قوته لما يناله من الجهد[٢] وفى الآية : (قال بَصُرتُ بما لم يَبْصُروا به فَقَبَضْتُ قَبْضَةً من أثر الرسول . . .) يقول : قرأ الحسن (قبضة) بضم القاف وهو اسم المقبوض كالغرفة والمضغة وأما القبضة فالمرة من القبض وإطلاقها على المقبوض تسمية المفعول بالمصدر كضرب الأمير وقرأ أيضاً فقبصت قبصة بالصاد المهملة ؛ الضاد بجميع الكف والصاد بأطراف الأصابع[٣] .

ويبين القراءتين فى الآية : (وقالوا أإذا ضَلَلنا فى الأرض أئنَّا لفى خَلْق جَديد) وفرق ما بينهما لغويًّا .. وقرأ الحسن رضى الله عنه : صللنا من صل اللحم وأصل إذا أنتن وقيلَ صرنا من جنس الصَّلَّة وهى الأرض[٤].

ويعرض للفروق اللغوية فى قراءات الآية : (وإنا لجميعٌ حاذرون) وقرئ حذرون وحاذرون وحادرون بالدال غير المعجمة، فالحذر اليقظ والحاذر الذى يجدد حذره وقيل المؤدى فى السلاح وإنما يفعل ذلك حذراً واحتياطاً لنفسه، والحادر السمين القوى. قال :

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٤٠٦ والآية ٢ من سورة التوبة .

(٢) الكشاف جـ ١ ص ٥٢١ و ٥٢٢ والآية ٧ من سورة النحل .

(٣) الكشاف جـ ٢ ص ٣٣ والآية ٩٦ من سورة طه .

(٤) الكشاف جـ ٢ ص ٢٠١ والآية ١٠ من سورة السجدة .

أحب الصبي السوء من أجل أمه وأبغضه من بغضها وهو حادر

أراد أنهم أقوياء أشداء، وقيل: مدججون فى السلاح قد كسبهم ذلك حدارة فى أجسامهم[١].

(ج) وهو يعالج القراءات ليوجه قراءة بعينها إلى أوجهها المعنوية المختلفات والمحتملات ليكشف عما وراء الآى من ثروة معان. فهو يستغل القراءات فى خدمة التفسير فيقول فى الآية: (ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون) قرئ يُكَذِّبون من كذَّبه الذى هو نقيض صدقه، أو من كَذَّب الذى هو مبالغة فى كَذَب كما بولغ فى صَدَقَ فقيل صدَّق. أو بمعنى الكثرة كقولهم: مونت البهائم وبركت الإبل أو من قولهم كذَّب الوحش إذا جرى شوطاً ثم وقف لينظر ما وراءه لأن المنافق متوقف متردد فى أمره ولذلك قيل له مذبذب وقال عليه السلام: مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة[٢]. ويقول فى الآيتين (إنْ هذا إلا خُلُقُ الأولين. وما نحن بمعذَّبين) من قرأ خَلْق الأولين بالفتح فمعناه أن ما جئت به اختلاق الأولين وتخرصهم كما قالوا أساطير الأولين أو ما خلقنا هذا إلا خلق القرون الخالية نحيا كما حيوا ونموت كما ماتوا ولا بعث ولا حساب. ومن قرأ خُلُق بضمتين وبواحدة فمعناه ما هذا الذى نحن عليه من الحياة والموت إلا عادة الأولين كانوا يلفقون مثله ويسطرونه[٣]. ويقول فى الآية: (ومن الناس منْ يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم) قرئ ليضل بضم الياء وفتحها. فإن قلت القراءة بالضم بينة لأن النضر كان غرضه باشتراء اللهو أن يصد الناس عن الدخول فى الإسلام واستماع القرآن ويضلهم عنه، فما معنى القراءة بالفتح؟ قلت: فيه معنيان. أحدهما ليثبت على ضلاله الذى كان عليه ولا يصدف عنه ويزيد فيه فإن المخذول كان شديد الشكيمة فى عداوة الدين وصد الناس عنه. والثانى أن يوضع ليَضل موضع

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ١٢٤. والآية ٥٦ من سورة الشعراء.

(٢) الكشاف جـ ١ ص ٢٧. الآية ١٠ من سورة البقرة.

(٣) الكشاف جـ ٢ ص ١٢٩ الآيتان ١٣٧، ١٣٨ من سورة الشعراء.

ليُضل" من قبل أن من أضل كان ضالاً" لاستحالة فدل بالردف على المردوف[١].

(د) إن هم الزمخشري المعنى القوى الذى تتضمنه الآى القرآنية ولذلك فالقراءة المفضلة عنده التى تحمل وراءها معنى قويًّا يخدم التفسير القرآنى فيفضل الزمخشرى القراءة المشهورة فى الآية (فَأَنَّ لله خُمُسَهُ) لقوة معناها وذهاب العقل فى التقدير مذاهب مختلفة وهو يعرب الآية فيقول: (فأن لله) مبتدأ خبره محذوف تقديره فحق أو فواجب أن لله خمسه. ثم بعد إذ يورد قراءات فى هذه الآية يقول: المشهورة آكد وأثبت للإيجاب كأنه قيل فلا بد من ثبات الخمس فيه ولا سبيل إلى الإخلال به والتفريط فيه من حيث إنه إذا حذف الخبر واحتمل غير واحد من المقدرات كقولك ثابت واجب حق لازم وما أشبه ذلك كان أقوى لإيجابه من النص على واحد[٢]. وفى الآية: (ضرب اللهُ مَثَلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابتٌ وفرعها فى السماء) يحبذ قراءة الجماعة لقوة معناها فيقول: قرأ أنس بن مالك كشجرة طيبة ثابت أصلها. فإن قلت: أى فرق بين القراءتين؟ قلت: قراءة الجماعة أقوى معنى لأن فى قراءة أنس أجريت الصفة على الشجرة وإذا قلت مررت برجل أبوه قائم فهو أقوى معنى من قولك مررت برجل قائم أبوه لأن المخبر عنه إنما هو الأب لا رجل[٣]. ويقول فى الآية (كَبُرَتْ كَلِمَةً) قرئ كبرت كلمةً وكلمةٌ بالنصب على التمييز والرفع على الفاعلية والنصب أقوى وأبلغ وفيه معنى التعجب كأنه قيل ما أكبرها كلمة[٤] ويقول عند الآية: (أم تَسْأَلُهم خرجاً فخراجُ رَبِّكَ خيرٌ) قرئ خراجاً فخراج وخرجاً فخرج وخرجاً فخراجُ وهو ما تخرجه إلى الإمام من زكاة أرضك إلى كل عامل من أجرته وجعله. وقيل الخرج ما تبرعت به والخراج ما لزمك أداؤه والوجه أن الخرج أخص من الخراج كقولك خراج القرية وخراج الكردة زيادة اللفظ

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ١٩٤. الآية ٦ من سورة لقمان.

(٢) الكشاف جـ ١ ص ٣٧٦ الآية ٤١ من سورة الأنفال.

(٣) الكشاف جـ ١ ص ٥٠٦. الآية ٢٤ من سورة إبراهيم.

(٤) الكشاف جـ ١ ص ٥٦٣. الآية ٥ من من سورة الكهف.

لزيادة المعنى ولذلك حسنت قراءة من قرأ وخرجاً (فخراج ربك) يعنى أم تسألهم على هدايتك لهم قليلا من عطاء الخلق فالكثير من عطاء الخالق خير[١] ويطرب لقراءة ابن مسعود لما وراء الوصف فيها من معنى نفسى يقول فى الآية : (ولى نعجة واحدة) فإن قلتَ : ما وجه قراءة ابن مسعود ولى نعجة أنثى ؟ قلت : يقال امرأة أنثى للحسناء الجميلة والمعنى وصفها بالعراقة فى لين الأنوثة وفتورها وذلك أملح لها وأزيد فى تكسرها وتثنيها ألا ترى إلى وصفهم لها بالكسول والمكسال وقوله :

* فتور القيام قطيع الكلام *

وقوله :

* تمشى رويداً تكاد تنغرف *[٢]

(هـ) مظهر آخر لاهتمام الزمخشرى باستغلال القراءة فى خدمة التفسير القرآنى فنراه يرجح القراءة إذا كانت تجرى والنسق المعنوى فى مضمار يقول فى الآية : (وفومها وعدسها وبصلها) والفوم الحنطة ومنه فوّموا لنا أى اخبزوا وقيل الثوم ويدل عليه قراءة ابن مسعود وثومها وهو للعدس والبصل أوفق[٣] كما أنه يرفض القراءة التى تخل بالنسق المعنوى ولا تستقر فيه يقول عند الآية: (وإنْ تَدْعُ مُثقلةٌ إلى حِمْلِها لا يُحملْ منه شيءٌ ولو كان ذا قربى) فإن قلت : ما تقول فيمن قرأ «ولو كان ذو قربى» على كان التامة كقولة تعالى: (وإن كان ذو عُسْرةٍ) ؟ قلت : نظم الكلام أحسن ملائمة للناقصة لأن المعنى على أن المثقلة إن دعتْ أحداً إلى حملها لا يحمل منه شيء وإن كان مدعوها ذا قربى وهو معنى صحيح ملتئم ولو قلت : ولو وجد ذو قربى لتفكك وخرج من اتساقه والتئامه على أن ههنا ما ساغ أن يستتر له ضميرٌ فى الفعل بخلاف

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٧٦ . الآية ٧٢ من سورة المؤمنون .

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٢٨١ . الآية ٢٣ من سورة ص .

(٣) الكشاف جـ ١ ص ٥٩ . الآية ٦١ من سورة البقرة .

ما أوردته[١] .

ويقول أيضاً فى قراءة فى الآى : (ألا إنهم من إفكهم ليقولون . ولدَ اللهُ وإنهم لكاذبون . أصطفى البنات على البنين . ما لكم كيفَ تحكُمون) فإن قلت : (أصطفى البنات) بفتح الهمزة استفهام على طريق الإنكار والاستبعاد فكيف صحت قراءة أبى جعفر بكسر الهمزة على الإثبات ؟ قلت : جعله من كلام الكفرة بدلا عن قولهم ولَدَ اللهُ ، وقد قرأ بها حمزة والأعمش رضى الله عنهما وهذه القراءة وإن كان هذا محملها فهى ضعيفة والذى أضعفها أن الإنكار قد اكتنف هذه الجملة من جانبيها وذلك قوله : وإنهم لكاذبون (ما لكم كيف تحكمون) فمن جعلها للإثبات فقد أوقعها دخيلة بين نسيبين[٢] .

(و) والزمخشرى يفضل القراءة التى تحفظ على الأسلوب القرآنى جماله وقوة معناه . فيقول فى الآية : (والله بما تعملون خبير) وقرئ بما تعملون بالتاء والياء فالتاء على طريقة الالتفات وهى أبلغ فى الوعيد والياء على الظاهر[٣] ويقول فى الآية : (ثُم إذا كشف الضرَّ عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ..) وقرأ قتادة كاشف الضر على فاعل بمعنى فعل وهو أقوى من كشف لأن بناء المبالغة يدله على المبالغة[٤] .

فإذا ما أضاعت القراءة من أسلوب القرآن جماله وقوة معناه رفضها وأباها وآثر غيرها مما يحفظ على القرآن جماله . يقول الزمخشرى فى الآية : (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة) فإن قلت : فلم قال على حياة بالتنكير ؟ قلت : لأنه أراد حياة مخصوصة وهى الحياة المتطاولة ولذلك كانت القراءة بها أوقع من قراءة أبىّ على : الحياة[٥] ويقول أيضاً فى الآية : (ولما سكت عن موسى

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٢٤٢ . الآية الأولى ١٨ من سورة فاطر . والثانية ٢٨٠ من سورة البقرة .

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٢٧٢ . الآى ١٥١ – ١٥٤ من سورة الصافات .

(٣) الكشاف جـ ١ ص ١٨٠ . الآية ٢٣٤ من سورة البقرة .

(٤) الكشاف جـ ١ ص ٥٢٨ ، ٥٢٩ . الآية ٥٤ من سورة النحل .

(٥) الكشاف جـ ١ ص ٦٧ . الآية ٩٦ من سورة البقرة .

الغضبُ) . . . هذا مثل كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له : قل لقومك كذا وألق الألواح وجر برأس أخيك فترك النطق بذلك وقطع الإغراء ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يستفصحها كل ذى طبع سليم وذوق صحيح إلا لذلك ولأنه من قبيل شعب البلاغة وإلا فما لقراءة معاوية بن قرة : (ولما سكن عن موسى الغضب) لا تجد النفس عندها شيئاً من تلك الهزة وطرفاً من تلك الروعة[١].

(ز) والزمخشرى يرى أن ضبط القراءة بحاجة إلى أهل النحو . فيقول فى الآية : (. . وإن تُبدوا ما فى أنفسكم أو تُخفوه يُحاسبكم به اللهُ فيَغفرُ لمن يشاءُ ويُعذبُ مَنْ يشاءُ . . .) . . وقرئ فيغفرْ ويعذبْ مجزومين عطفاً على جواب الشرط ومرفوعين على فهو يغفر ويعذب . فإن قلت : كيف يقرأ الجازم ؟ قلت : يظهر الراء ويدغم الباء ومدغم الراء فى اللام لاحن مخطئ خطأ فاحشاً وراويه عن أبى عمرو مخطئ مرتين لأنه يلحن وينسب إلى أعلم الناس بالعربية ما يؤذن بجهل عظيم والسبب فى نحو هذه الروايات قلة ضبط الرواة والسبب فى قلة الضبط قلة الدراية ولا يضبط نحو هذا إلا أهل النحو[٢].

ومن ثم يرفض كل قراءة لا تضطرد والقاعدة النحوية يرفض مثلا قراءة ابن أبى عبلة فى الآية : (يأيها الذين آمنوا لا تدخلُوا بيوتَ النبى إلا أنْ يؤذنَ لكم إلى طعام غير ناظرين إناه . . .) وعن ابن أبى عبلة أنه قرأ غير ناظرين مجروراً صفة لطعام وليس بالوجه لأنه جرى على غير ما هو له فمن حق ضمير ما هو له أن يبرز إلى اللفظ فيقول غير ناظرين إناه أنتم كقولك : هند زيد ضاربته هى[٣]. ولذلك أيضاً يرفض قراءة ابن عامر فى الآية : (وكذلك زَيَّنَ لكثير من المشركين قَتلَ أولادهم شركاؤهم . . .) وأما قراءة ابن عامر قتل أولادهم شركائهم برفع القتل ونصب الأولاد وجر الشركاء على إضافة القتل إلى الشركاء

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٣٥٣ . الآية ١٥٤ من سورة الأعراف .
(٢) الكشاف جـ ١ ص ١٣٣ . آية ٢٨٤ من سورة البقرة .
(٣) الكشاف جـ ٢ ص ٢١٩ . آية ٥٣ من سورة الأحزاب .

والفصل بينهما بغير الظرف فشيء لو كان فى مكان الضرورات وهو الشعر لكان سمجاً مردوداً كما سمج ورد : « زج القلوص أبى مزاده » فكيف به فى الكلام المنثور فكيف به فى القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته ، والذى حمله على ذلك أن رأى فى بعض المصاحف شركائهم مكتوباً بالياء ولو قرأ بجر الأولاد والشركاء لأن الأولاد شركاؤهم فى أموالهم لوجد فى ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب[١] وهو على هذا الوجه يرفض كذلك هذه القراءة فى الآية : (فلا تحسبنّ اللهَ مُخلِفَ وَعْدِه رسلَهُ ..) وقرئ مخلف وَعدَه رسله بجر الرسل ونصب الوعد وهذه فى الضعف كمن قرأ قتلُ أولادَهم شركائهم[٢] .

الزمخشرى الفقيه :

الصوره التى تركها الزمخشرى عن نفسه والتى سجلتها له كتب الترجمة صورة فقيه حنفى فهو يمدح القضاة الشارعيين فى خوارزم وهم شافعية فيقول :

إنى بدين ولأنهم متشيع ... لهم ولست بشافعى المذهب[٣]

ويقر بأنه حنفى المذهب يقول :

وأسند دينى واعتقادى ومذهبى ... إلى حنفاء أختارهم وحنايفا
حنيفية أديانهم حنفية ... مذاهبهم لا يبتغون الزعانفا[٤]

وهو فخور بمذهبه مادح لمن عليه يقول : « رضى الله عن العلماء الحاشين من الله وحسابه . . جمعوا إلى الدين الحنيفى العلم الحنفى »[٥] ويقول : « الدين والعلم حنيفى وحنفى »[٦] ويقول ابن قطلوبغا : «عده فى الحنفية الشيخ محيى الدين والشيخ مجد الدين »[٧] . ولكنه لسعة أفقه — ولو أنه حنفى — فهو حيناً

(١) الكشاف ج ١ ص ٣١٤ يناقشه بعنف ابن المنير فى رده هذه القراءة لأن صاحبها أحد أئمة قراء الوجوه السبعة . والآية ١٣٧ من سورة الأنعام .
(٢) الكشاف ج ١ ص ٥١١ . والآية ٤٧ من سورة إبراهيم .
(٣) ديوان الأدب ورقة ٨ .
(٤) ديوان الأدب ورقة ٧٨ .
(٥) أطواق الذهب فى المواعظ والخطب للزمخشرى « المقالة الثانية والأربعون » ص ٥٢ .
(٦) نوابغ الكلم ص ٣١ .
(٧) تاج التراجم فى طبقات الحنفية لابن قطلوبغا نشره جوستاف فلوجل ص ٥٣ .

يفضل غير مذهبه فيفضل مذهب الشافعى — كما يرى — فى الآية : (وإن طلقتموهن من قبل أن تمسُّوهنَّ وقد فرضتم لهن فريضةً فنِصْفُ ما فرضتم إلا أن يَعْفُون أو يعفُوَ الذى بيده عُقْدَةُ النِّكاح) [٢٣٧ البقرة] يعنى إلا أن تعفو المطلقات عن أزواجهن فلا يطالبنهم بنصف المهر وتقول المرأة ما رآنى ولا خدمته ولا استمتع بى فكيف آخذ منه شيئاً أو يعفو الولى الذى يلى عقد نكاحهن وهو مذهب الشافعى وقيل هو الزوج وعفوه أن يسوق إليها المهر كاملا وهو مذهب أبى حنيفة والأول ظاهر الصحة وتسمية الزيادة على الحق عفواً فيها نظر إلا أن يقال كان الغالب عندهم أن يسوق إليها المهر عند التزوج فإذا طلقها استحق أن يطالبها بنصف ما ساق إليها فإذا ترك المطالبة فقد عفا عنها أو سماه عفواً على طريق المشاكلة[١] .

(ا) والصورة التى نستبينها عن الزمخشرى الفقيه فى تفسيره هى صورة من وعى الآراء الفقهية فهو يعرضها عرضاً دون أن يفصل برأى . مثلا الآية : (فمن كان منكم مريضاً أو على سَفَرٍ فعدَّةٌ من أيامٍ أخر) يقول فيها : اختلف فى المرض المبيح للإفطار فمن قائل كل مرض لأن الله تعالى لم يخص مرضاً دون مرض كما لم يخص سفراً دون سفر فكما أن لكل مسافر أن يفطر فكذلك كل مريض . وعن ابن سيرين أنه دخل عليه فى رمضان وهو يأكل فاعتل بوجع أصبعه . وسئل مالك عن الرجل يصيبه الرمد الشديد أو الصداع المضر وليس به مرض يضجعه فقال إنه فى سعة من الإفطار . وقائل هو المرض الذى يعسر معه الصوم ويزيد فيه لقوله تعالى : (يريد الله بكم اليسر) وعن الشافعى لا يفطر حتى يجهده الجهد غير المحتمل . واختلف أيضاً فى القضاء . فعامة العلماء على التخيير ، وعن أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه أن الله لم يرخص لكم فى فطره وهو يريد أن يشق عليكم فى قضائه إن شئت

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ١١٤ . وفى الحاشية يقول ابن المنير : هذا النقل وهم فيه الزمخشرى عن الشافعى رضى الله عنه فإن مذهبه موافق لمذهب أبى حنيفة رضى الله عنه فى أن المراد به الزوج وإنما ذهب إلى أن المراد الولى الإمام مالك رضى الله عنه .

فواتر وإن شئت ففرق . وعن على وابن عمر والشعبي وغيرهم أنه يقضى كما فات متتابعاً وفى قراءة أبيّ فعدة من أيام أخر متتابعات[١].

(ب) وحيناً نرى الزمخشرى يبدى رأيه الفقهى يقول فى الآية : (وأتموا الحج والعمرة لله) [٢] فإن قلت : هل فيه دليل على وجوب العمرة ؟ قلت ما هو إلا أمر بإتمامهما ولا دليل فى ذلك على كونهما واجبين أو تطوعين فقد يؤمر بإتمام الواجب والتطوع جميعاً إلا أن تقول الأمر بإتمامهما أمر بأدائهما بدليل قراءة من قرأ وأقيموا الحج والعمرة والأمر للوجوب فى أصله إلا أن يدل دليل على خلاف الوجوب كما دلت فى قوله فاصطادوا فانتشروا ونحو ذلك . فيقال لك فقد دل الدليل على نفى الوجوب وهو ما روى أنه قيل : يا رسول الله العمرة واجبة مثل الحج ؟ قال : لا ولكن أن تعتمر خير لك . وعنه الحج جهاد والعمرة تطوع . فإن قلت : فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : إن العمرة لقرينة الحج . وعن عمر رضى الله عنه : أن رجلا قال له : إنى وجدت الحج والعمرة مكتوبين على أهللت بهما جميعاً ، فقال : هديت لسنة نبيك. وقد نظمت مع الحج فى الأمر بالإتمام فكانت واجبة مثل الحج ؟ قلت : كونها قرينة للحج أن القارن يقرن بينهما وأنهما يقترنان فى الذكر فيقال حج فلان واعتمر والحجاج والعمار لأنها الحج الأصغر ولا دليل فى ذلك على كونها قرينة له فى الوجوب ، وأما حديث عمر رضى الله عنه فقد فسر الرجل كونهما مكتوبين عليه بقوله أهللت بهما وإذا أهل بالعمرة وجبت عليه كما إذا كبر بالتطوع من الصلاة والدليل الذى ذكرناه أخرج العمرة من صفة الوجوب فبقى الحج وحده فيها منهما بمنزلة قولك صم شهر رمضان وستة من شوال فى أنك تأمره بفرض وتطوع . وقرأ على وابن مسعود والشعبى رضى الله عنهم والعمرةُ لله بالرفع كأنهم قصدوا بذلك إخراجها عن حكم الحج وهو الوجوب[٣] .

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٨٩ و ٩٠ . والآية ١٨٤ من سورة البقرة .
(٢) الآية ١٩٦ من سورة البقرة .
(٣) الكشاف جـ ١ ص ٩٥ .

(حـ) وقد يثير نقاشاً فقهياً يخدم تفسير الآية . مثلا الآية : (إنما حرّم عليكم الميتة والدّمَ ولحمَ الخنزير . . .) فإن قلت : فى الميتات ما يحل وهو السمك والجراد . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحلت لنا ميتتان ودمان ؟ قلت : قصد ما يتفاهمه الناس ويتعارفونه فى العادة ألا ترى أن القائل إذا قال أكل فلان ميتة لم يسبق الوهم إلى السمك والجراد كما لو قال أكل دماً لم يسبق إلى الكبد والطحال ولاعتبار العادة والتعارف قالوا : من حلف لا يأكل لحماً فأكل سمكاً لم يحنث وإن أكل لحماً فى الحقيقة قال الله تعالى : (لتأكلوا منه لحماً طريًّا) وشبهوه بمن حلف لا يركب دابة فركب كافراً لم يحنث وإن سماه الله تعالى دابة فى قوله : (إن شرَّ الدواب عند الله الذين كفروا) فإن قلت : فما له ذكر لحم الخنزير دون شحمه ؟ قلت : لأن الشحم داخل فى ذكر اللحم لكونه تابعاً له وصفة فيه بدليل قولهم لحم سمين يريدون أنه شحيم[1] .

(د) وبعقليته الفقهية يحلل الآى القرآنية تحليلا فقهياً لننظر الآيتين : (وداودَ وسليمانَ إذ يحكمان فى الحرث إذْ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين . ففهّمناها سليمان وكلاًّ آتينا حكماً وعلماً)[2] حكم داود بالغنم لصاحب الحرث فقال سليمان عليه السلام وهو ابن إحدى عشرة سنة غير هذا أرفق بالفريقين فعزم عليه ليحكمن فقال : أرى أن تدفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وأصوافها والحرث إلى أرباب الشاء يقومون عليه حتى يعودَ كهيئته يوم أفسد ثم يترادان فقال : القضاء ما قضيت وأمضى الحكم بذلك . فإن قلت : أحكما بوحى أم باجتهاد ؟ قلت : حكما جميعاً بالوحى إلا أن حكومة داود نسخت بحكومة سليمان عليهما السلام وقيل اجتهدا جميعاً فجاء اجتهاد سليمان عليه السلام أشبه بالصواب ؛ فإن قلت : ما وجه كل واحدة من الحكومتين ؟ قلت : أما وجه حكومة داود عليه السلام فلأن الضر لما وقع بالغنم سُلّمت بجنايتها إلى المجنى عليه ، كما قال أبو حنيفة رضى الله عنه فى العبد إذا جنى على النفس

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٨٦ . الآية الأولى ١٧٣ من سورة البقرة . والثانية ١٤ من سورة النحل . والثالثة ٥٥ من سورة الأنفال .

(٢) آيتا ٧٨ و ٧٩ من سورة الأنبياء .

يدفعه المولى بذلك أو يفديه . وعند الشافعى رضى الله عنه يبيعه فى ذلك أو يفديه، ولعل قيمة الغنم كانت على قدم النقصان فى الحرث . ووجه حكومة سليمان عليه السلام أنه جعل الانتفاع بالغنم بإزاء ما فات من الانتفاع بالحرث من غير أن يزول ملك المالك عن الغنم وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل فى الحرث حتى يزول الضر والنقصان مثاله ما قال أصحاب الشافعى فيمن غصب عبداً فأبق من يده أنه يضمن القيمة فينتفع بها المغصوب منه بإزاء ما فوته الغاصب من منافع العبد فإذا ظهر ترادا[1] ثم يربط بين شريعة داود وشريعة الإسلام فيقول : فإن قلت : فلو وقعت هذه الواقعة فى شريعتنا ما حكمها ؟ قلت : أبو حنيفة وأصحابه رضى الله عنهم لا يرون فيه ضماناً بالليل أو بالنهار إلا أن يكون مع البهيمة سائق أو قائد، والشافعى رضى الله عنه يوجب الضمان بالليل وفى قوله : (ففهمناها سليمان) دليل على أن الأصوب كان مع سليمان عليه السلام[2] ويحلل فقهياً الآية : (قال إنى أريدُ أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجُرَنى ثمانى حجج . . .) [١٢٧ القصص] فإن قلت كيف صح أن ينكحه إحدى ابنتيه من غير تمييز ؟ قلت : لم يكن ذلك عقداً للنكاح ولكن مواعدة ومواضعة أمر قد عزم عليه ولو كان عقداً لقال قد أنكحتك ولم يقل إنى أريد أن أنكحك. فإن قلت : فكيف صح أن يمهرها إجازة نفسه فى رعية الغنم ولا بد من تسليم ما هو مال ألا ترى إلى أبى حنيفة كيف منع أن يتزوج امرأة بأن يخدمها سنة وجوز أن يتزوجها بأن يخدمها عبده سنة أو يسكنها داره سنه لأنه فى أول الأمر مسلم نفسه وليس بمال وفى الثانى هو مسلم مالا وهو العبد أو الدار ؟ قلت : الأمر على مذهب أبى حنيفة على ما ذكرت وأما الشافعى فقد جوز التزوج على الإجازة لبعض الأعمال والخدمة إذا كان المستأجر له أو المخدوم فيه أمراً معلوماً ولعل ذلك كان جائزاً فى تلك الشريعة ويجوز أن يكون المهر شيئاً آخر وإنما أراد أن يكون راعى غنمه هذه المدة

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٥٠ .

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٥٠ و ٥١ .

وأراد أن ينكحه ابنته فذكر له المرادين وعلق الإنكاح بالرعية على معنى إنى أفعل هذا إذا فعلت ذاك على وجه المعاهدة لا على وجه المعاقدة . ويجوز أن يستأجره لرعيه ثمانى سنين بمبلغ معلوم ويوفيه ثم ينكحه ابنته به ويجعل قواه على أن تأجرنى ثمانى حجج عبارة عما جرى بينهما [١] .

(٥) ويبين حكمة التشريع . مثلا الآية : (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ...) فإن قلت : الكافر يقذف فيتوب عن الكفر فتقبل شهادته بالإجماع والقاذف من المسلمين يتوب عن القذف فلا تقبل شهادته عند أبى حنيفة رضى الله عنه كأن القذف مع الكفر أهون من القذف مع الإسلام ؟ قلت : المسلمون لا يعبأون بسب الكفار لأنهم شهروا بعداوتهم والطعن فيهم بالباطل فلا يلحق المقذوف بقذف الكافر من الشين والشنار ما يلحقه بقذف مسلم مثله فشدد على القاذف من المسلمين ردعاً وكفًّا عن إلحاق الشنار [٢] .

الزمخشرى الأديب :

والزمخشرى كأديب تطالعنا شخصيته من ثنايا تفسيره فهو إن فسر أديب ذواقة للمعنى وجماله . والأساوب وحلاوته وإن فضل قراءة فضلها لجمال معناها وأسلوبها وإن عرض للنحو عرض له عرض من يقدر الجمال معنى ولفظاً — كما رأينا قبل — وهنا نعرض لناحية إحساسه الأدبى وتذوقه الجمالى للنص القرآنى :

(ا) فهو يحيا بحسه وروحه فى ثنايا النص ثم يعود إلينا وقد لمح معانى نفسية استشفها من باطن النص من طول إلفه له يدير مثلا هذا النقاش الذى يقول فيه عند الآية : (... كلما رُزِقُوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذى رُزِقْنا من قبل وأتوا به مُتشابهاً . . .) [٣] .

فإن قلت : لأى غرض يتشابه ثمر الدنيا وثمر الجنة وما بال ثمر الجنة

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ١٦٠ .

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٨٤ .

(٣) سورة البقرة آية ٢٥ .

لم يكن أجناساً أخر ؟ قلت : لأن الإنسان بالمألوف آنس وإلى المعهود أميل وإذا رأى ما لم يألفه نفر عنه طبعه وعافته نفسه ولأنه إذا ظفر بشيء من جنس ما سلف له به عهد وتقدم له معه إلف ، ورأى فيه مزية ظاهرة وفضيلة بينة وتفاوتاً بينه وبين ما عهد بليغاً أفرط ابتهاجه واغتباطه وطال استعجابه واستغرابه وتبين كنه النعمة فيه وتحقق مقدار الغبطة به . ولو كان جنساً لم يعهده وإن كان فائقاً حسب أن ذلك الجنس لا يكون إلا كذلك فلا يتبين موقع النعمة حق التبين فحين أبصروا الرمانة من رمان الدنيا ومبلغها فى الحجم وأن الكبرى لا تفضل عن حد البطيخة الصغيرة ثم يبصرون رمانة الجنة تشبع السكن والنبقة من نبق الدنيا فى حجم الفَلْكَة ثم يرون نبق الجنة كقلال هجر كما رأوا ظل الشجرة من شجر الدنيا وقدر امتداده ثم يرون الشجرة فى الجنة يسير الراكب فى ظلها مائه عام لا يقطعه كان ذلك أبين للفضل وأظهر للمزية وأجلب للسرور وأزيد فى التعجب من أن يفاجئوا ذلك الرمان وذلك النبق من غير عهد سابق بجنسهما « وترديدهم » هذا القول ونطقهم به عند كل ثمرة يرزقونها دليل على تناهى الأمر وتمادى الحال فى ظهور المزية وتمام الفضيلة وعلى أن ذلك التفاوت العظيم هو الذى يستملى تعجبهم ويستدعى تبجحهم فى كل أوان[١] .

ويقول فى الآية : (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظُلَلٍ من الغَمَام) فإن قلت : لِمَ يأتيهم العذاب فى الغمام ؟ قلت : لأن الغمام مظنة الرحمة فإذا نزل منه العذاب كان الأمر أفظع وأهول لأن الشر إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أغم كما أن الخير إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أسر فكيف إذا جاء الشر من حيث يحتسب الخير ولذلك كانت الصاعقة من العذاب المستفظع لمجيئها من حيث يتوقع الغيث ومن ثمة اشتد على المتفكرين فى كتاب الله قوله تعالى : (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون)[٢] .

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٤٤ و ٤٥ .

(٢) الكشاف جـ ١ ص١٠١ . الآية الأولى ٢١٠ من سورة البقرة . والثانية ٤٧من سورة الزمر .

ويقول الزمخشرى فى الآية: (قالت ربِّ إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت) ... فإن قلت: فلم قالت: إنى وضعتها أنثى وما أرادت إلى هذا القول؟ قلت: قالته تحسراً على ما رأت من خيبة رجائها وعكس تقديرها فتحزنت إلى ربها لأنها كانت ترجو وتقدر أن تلد ذكراً ولذلك نذرته محرراً للسدانة. ولتكلمها بذلك على وجه التحسر والتحزن قال الله تعالى: (والله أعلم بما وضعت) تعظيماً لموضوعها وتجهيلا لها بقدر ما وهب لها منه[١].

وفى الآيتين: (إما أن تُلْقِىَ وإما أن نكون نحنُ الملقين. قال ألقوا) يقول: تخييرهم إياه أدب حسن راعوه معه كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا كالمتناظرين قبل أن يتخاوضوا فى الجدال والمتصارعين قبل أن يتآخذوا للصراع. وقولهم: (وإما أن نكون نحن الملقين) فيه ما يدل على رغبتهم فى أن يلقوا قبله من تأكيد ضميرهم المتصل بالمنفصل وتعريف الخبر، أو تعريف الخبر وإقحام الفصل وقد سوغ لهم موسى ما تراغبوا فيه ازدراء لشأنهم وقلة مبالاة بهم وثقة بما كان بصدده من التأييد السماوى وأن المعجزة لن يغلبها سحر أبداً[٢].

(ب) إن شخصية الزمخشرى الأدبية شخصية طغت عليها العاطفة الدينية فى الأمور الجمالية. إن الفن عنده فن إصلاح والشعر مقبول ما لم يدفع إلى معصية يقول فى الآيات: (والشعراء يتبعهم الغاوون. ألم تر أنهم فى كل وادٍ يهيمون. وأنهم يقولون مالا يفعلون. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات...) [الشعراء ٢٢٤ — ٢٢٦] استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله وتلاوة القرآن وكان ذلك أغلب عليهم من الشعر وإذا قالوا شعراً قالوه فى توحيد الله والثناء عليه والحكمة والموعظة والزهد والآداب الحسنة ومدح رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة وصلحاء الأمة ومالا بأس به من المعانى لا يتلطخون فيها بذنب ولا يتلبسون بشائنة ولا منقصة وكان هجاؤهم على

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ١٤٤. الآية ٣٦ من سورة آل عمران.

(٢) الكشاف جـ ١ ص ٣٤٢. الآية ١١٥ من سورة الأعراف.

سبيل الانتصار ممن يهجوهم قال الله تعالى: (لا يحبُّ اللهُ الجهر بالسوء منَ القول إلا منَ ظلم)[١٤٨ النساء] وذلك من غير اعتداء ولا زيادة على ما هو جواب لقوله تعالى: (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) [١٩٤ البقرة] وعن عمرو بن عبيد أن رجلا من العلوية قال له: إن صدرى ليجيش بالشعر ، فقال فما يمنعك منه فيما لا بأس به والقول فيه ، إن الشعر باب من الكلام فحسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام[١] .

(ح) وهو يجيء بالشعر المضمن معنى الآى الذى يفسر . مثلا آية : (والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم) [٢٤ النساء] يريد ما ملكت أيمانهم من اللاتى سبين ولهن أزواج فى دار الكفر فهن حلال لغزاة المسلمين وإن كن محصنات وفى معناه قول الفرزدق :

وذات حليل أنكحتها رماحنا حلال لمن يبنى بها لم تطلق[٢]

ويوسع نطاقه فيستشهد بأشعار المحدثين — لا من حدد اللغويون الاستشهاد بأشعارهم . يستشهد بأبى نواس فى الآية : (إنَّ إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً) [١٢٠ النحل] فيه وجهان أحدهما أنه كان وحده أمة من الأمم لكماله فى جميع صفات الخير كقوله :

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد[٣]

ويتمثل به أيضاً عند الآية : (أفمنْ زُيِّنَ له سُوءُ عمله فرآه حسناً فإن اللهَ يُضلُّ منَ يشاءُ ويهدى من يشاء) [٨ فاطر] ومعنى تزيين العمل والإضلال واحد وهو أن يكون العاصى على صفة لا تجدى عليه المصالح حتى يستوجب بذلك خذلان الله تعالى وتخليته وشأنه ؛ فعند ذلك يهيم فى الضلال ويطلق آمر النهى ويعتنق طاعة الهوى حتى يرى القبيح حسناً والحسن قبيحاً كأنما غلب

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ١٣٥ و ١٣٦ . وراجع دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى ص ٢٠ فالزمخشرى ملخص لرأيه . الطبعة الثانية . مطبعة المنار سنة ١٣٣١ هـ .

(٢) الكشاف جـ ١ ص ٢٠١ .

(٣) الكشاف جـ ١ ص ٥٤٠ .

على عقله وسلب تمييزه ويقعد تحت قول أبى نواس :

اسقنى حتى ترانى حسنا عندى القبيح[١]

ويستشهد بما نظم من شعر — وهو الشاعر الذى له ديوانه . فى الآية : (إن الله لايستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) يقول متمثلاً لبعضهم — وما عنى إلا نفسه — وأنشدت لبعضهم :

يا من يرى مد البعوض جناحها فى ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى عروق نياطها فى نحرها والمخ فى تلك العظام النحل
اغفر لعبد تاب من فرطاته ما كان منه فى الزمان الأول[٢]

فالأبيات تفسير أدبى للآية إذ تكشف عن عظم خلقة البعوضة . ويتمثل فى الآية : (لتنذر أم القرى) [٧ الشورى] ببيت له فيقول. أم القرى لأنها مكان أول بيت وضع للناس ولأنها قبلة أهل القرى كلها ومحجهم ولأنها أعظم القرى شأناً ولبعض المجاورين :

فمن يلق فى بعض القريات رحله فأم القرى ملقى رحالى ومنتابى[٣]

ويستشهد ببيت للمتنبى فى الآية : (فلما رأينه أكبرنه) . . [٣١ يوسف] وقيل أكبرن بمعنى حضن والهاء للسكت يقال أكبرت المرأة إذا حاضت وحقيقته دخلت فى الكبر لأنها بالحيض تخرج من حد الصغر إلى حد الكبر وكأن أبا الطيب أخذ من هذا التفسير قوله :

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع فإن لحت حاضت فى الخدور العواتق[٤]

ويتمثل به أيضاً فى الآية : (فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً) [١٦ المزمل] مثل فى الشدة يقال فى اليوم الشديد يوم يشيب نواصى الأطفال والأصل فيه أن الهموم والأحزان إذا تفاقمت على الإنسان أسرع فيه الشيب قال أبو الطيب :

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٢٣٩ .
(٢) الكشاف جـ ١ ص ٤٨ .
(٣) الكشاف جـ ١ ص ٣٠٣ .
(٤) الكشاف جـ ١ ص ٤٧١ .

والهم يخترم الجسيم نحـافة ويشيب ناصية الصبي ويهرم[١]

كما يتمثل بغيرهم :

(د) وثقافته الأدبية تدفع به أمام بعض الآى إلى أن يستطرد استطرادات أدبية . منها ما قد يخدم تفسير الآى مثلا آية : (. . ويكتمون ما آتاهم الله من فضله) وبنى عامل للرشيد قصراً حذاء قصره فنم به عنده فقال الرجل ياأمير المؤمنين إن الكريم يسره أن يرى أثر نعمته فأحببت أن أسرك بالنظر إلى آثار نعمتك فأعجبه كلامه[٢] .

ومنها ما لا صلة له بتفسير الآية ولكن طبيعته الأدبية تمليه فيستطرد إلى البحث فى الجمال فى الآية : (وصوركم فأحسن صوركم) الحسن كغيره من المعانى على طبقات ومراتب فلانحطاط بعض الصور عن مراتب ما فوقها انحطاطاً بيناً وإضافتها إلى الموفى عليها لا تستملح وإلا فهى داخلة فى حيز الحسن غير خارجة عن حده ألا ترى أنك قد تعجب بصورة وتستملحها ولا ترى الدنيا بهائم ترى أملح وأعلى فى مراتب الحسن منها فينبو عن الأولى طرفك وتستثقل النظر إليها بعد افتتانك بها وتهالكك عليها وقالت الحكماء شيئان لا غاية لهما الجمال والبيان[٣] ويستطرد قائلا عند الآية : (ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً) .. وعن المأمون أنه ليلة زفت إليه بوران بنت الحسن بن سهل وهو على بساط منسوج من ذهب وقد نثرت عليه نساء دار الخلافة اللؤلؤ فنظر إليه منثوراً على ذلك البساط فاستحسن المنظر وقال لله در أبى نواس كأنه أبصر هذا حيث يقول :

كأن صغرى وكبرى من فواقعها حصباءُ درٍّ على أرض من الذهب[٤]

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٥٠٠ .

(٢) الكشاف جـ ١ ص ٢٠٦ . الآية ٣٧ من سورة النساء .

(٣) الكشاف جـ ٢ ص ٤٦٤ . آية ٣ من سورة التغابن .

(٤) الكشاف جـ ٢ ص ٥١٣ . آية ١٩ من سورة الإنسان .

وقد يستطرد ناقداً، مثلا آية: (ولقد مكنّاهم فيما إن مكنّاكم فيه) إن نافية أى فيما ما مكناكم فيه إلا إن أن أحسن فى اللفظ لما فى مجامعة « ما » مثلها من التكرير المستبشع ومثله مجتنب ألا ترى أن الأصل فى مهما ما ما فلبشاعة التكرير قلبوا الألف هاء ولقد غث أبو الطيب قوله : « لعمرك ما ما بان منك لضارب» وما ضره لو اقتدى بعذوبة لفظ التنزيل [١].

وهو هنا يتحامل على المعرى دون مناسبة ويبين عن فضل القرآن على كلام البشر عند الآيتين : (إنها ترمى بشررٍ كالقصرِ . كأنه جِمالات صُفر) [٣٢، ٣٣ المرسلات] وقال أبو العلاء :

حمراء ساطعة الذوائب فى الدجى ترمى بكل شرارة كطراف

فشبهها بالطراف وهو بيت الأدم فى النظم والحمرة وكأنه قصد بخبثه أن يزيد على تشبيه القرآن ولتبجحه بما سول له من توهم الزيادة جاء فى صدر بيته بقوله حمراء توطئة لها ومناداة عليها وتنبيهاً للسامعين على مكانها ولقد عمى جمع الله له عمى الدارين عن قوله عزوعلا كأنه جمالات صفر فإنه بمنزلة قوله كبيت أحمر وعلى أن فى التشبيه بالقصر تشبيهاً من جهتين من جهة العظم ومن جهة الطول فى الهواء وفى التشبيه بالجمالات وهى القلوص تشبيه من ثلاث جهات من جهة العظم والطول والصفرة فأبعد الله إغرابه فى طرافه وما نفخ شدقيه من استطرافه[٢].

أو يستطرد مستطرفاً. مثاله قوله عند آية: (ومن يَغْلُلْ يأتِ بما غَلَّ يوم القيامة ثم توفى كلُّ نفسٍ ما كسبت وهم لا يُظْلَمون) . . وعن بعض جفاة الأعراب أنه سرق نافجة مسك فتليت عليه الآية فقال: إذاً أحملها طيبة الريح خفيفة المحمل[٣].

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٣٧٣ . آية ٢٦ من سورة الأحقاف .

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٥١٦ .

(٣) الكشاف جـ ١ ص ١٧٥ . والآية ١٦١ من سورة آل عمران .

وهناك جانب آخر تبرز فيه شخصيته الأدبية وذوقه الفنى الحساس سنعرض له فى مبحثنا عن الإعجاز القرآنى .

الزمخشرى المربى الروحى :

والزمخشرى يرى أن القرآن وثيق الصلة بالحياة فهو كتاب دين ودنيا وليس كلاماً يفسر فحسب فدرس التفسير عنده درس عملى للتربية الروحية[١] هاهو ذا يستخرج الدروس والعظة من قصة ضرب بعض البقرة بميت يهود . يقول : « فإن قُلْتَ هلا أحياه ابتداء ولم شرط فى إحيائه ذبح البقرة وضربه ببعضها ؟ قلت : فى الأسباب والشروط حكم وفوائد . وإنما شرط ذلك لما فى ذبح البقرة من التقرب ، وأداء التكليف ، واكتساب الثواب والإشعار بحسن تقديم القربة على الطلب ، وما فى التشديد عليهم لتشديدهم من اللطف لهم ولآخرين فى ترك التشديد والمسارعة إلى امتثال أوامر الله تعالى وارتسامها على الفور من غير تفتيش وتكثير سؤال ، ونفع اليتيم بالتجارة الرابحة ، والدلالة على بركة البر بالوالدين والشفقة على الأولاد ، وتجهيل الهازئ بما لا يعلم كنهه ولا يطلع على حقيقته من كلام الحكماء ، وبيان أن من حق المتقرب إلى ربه أن يتنوق فى اختيار ما يتقرب به ، وأن يختاره فتىّ السن غير قحم ولا ضَرَع ؛ حسن اللون بريئاً من العيوب ؛ يونق من ينظر إليه ، وأن يغالى بثمنه ؛ كما يروى عن عمر رضى الله عنه أنه ضحى بنجيبة بثلاثمائة دينار . وأن الزيادة فى الخطاب نسخ له ، وأن النسخ قبل الفعل جائز وإن لم يجز قبل وقت الفعل وإمكانه لأدائه إلى البداء ، وليعلم بما أمر من مس الميت بالميت وحصول الحياة عقيبه أن المؤثر هو المسبب لا الأسباب ؛ لأن الموتين الحاصلين فى الجسمين لا يعقل أن تتولد منهما حياة»[٢] .

---

(١) منزع العظة فى التفسير القرآنى قديم قدم التفسير نفسه والجاحظ فى البيان والتبيين جـ ١ ص ١٣٨ ، ١٣٩ طبعة المطبعة العلمية سنة ١٣١١ هـ يطلق على المفسر لفظ القاص مشيراً بذلك إلى أن العظة بالقرآن وقصصه منهج من مناهج التفسير المعروفة .

(٢) الكشاف جـ ١ ص ٦٢ .

ويمجد القرآن والسنة فى وصاياهما بالقصد فى الأكل والشراب فيقول فى الآية : (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) . . ويحكى أن الرشيد كان له طبيب نصرانى حاذق فقال لعلى بن الحسين بن واقد ليس فى كتابكم من علم الطب شىء والعلم علمان علم الأبدان وعلم الأديان فقال له قد جمع الله الطب كله فى نصف آية من كتابه . قال : وما هى ؟ قال : قوله تعالى : (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) فقال النصرانى ولا يؤثر من رسولكم شىء فى الطب ؟ فقال : قد جمع رسولنا صلى الله عليه وسلم الطب فى ألفاظ يسيرة . قال : وما هى ؟ قال : قوله المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء وأعط كل بدن ما عودته . فقال النصرانى : ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبا[١] .

ويسفر عن عاقبة الظلم مفيداً من تجاربه فى الحياة . يقول فى الآيتين : (فأوحى إليهم ربهم لنُهلِكنَّ الظالمين ، ولنُسكِنَنَّكُمُ الأرض من بعدهم . .) وعن النبى صلى الله عليه وسلم من آذى جاره ورثه الله داره ولقد عاينت هذا فى مدة قريبة . كان لى خال يظلمه عظيم القرية التى أنا منها ويؤذينى فيه فمات ذلك العظيم وملكنى الله ضيعته فنظرت يوماً إلى أبناء خالى يترددون فيها ويدخلون فى دورها ويخرجون ويأمرون وينهون فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدثتهم به وسجدنا شكراً لله[٢] .

وينصح بالبعد عن الشائعات فى الآية : (لولا إذ سَمِعتُمُوه ظَنَّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفكٌ مبينٌ) هكذا بلفظ المصرح ببراءة ساحته كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال وهذا من الأدب الحسن الذى قل القائم به والحافظ له وليتك تجد من يسمع فيسكت ولا يشيع ما سمعه بأخوات[٣] .

ويهدى إلى أدب الضيف فى الآية : (فراغَ إلى أهله فجاءَ بعجل سمين)

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٣٢٧ . والآية ٣١ من سورة الأعراف .
(٢) الكشاف جـ ١ ص ٥٠٣ . والآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة إبراهيم .
(٣) الكشاف جـ ٢ ص ٨٦ . والآية ١٢ من سورة النور .

فذهب إليهم فى خفية من ضيوفه ومن أدب المضيف أن يخفى أمره وأن يباده بالقرى من غير أن يشعر به الضيف حذراً من أن يكفّه ويعذره[١] .

ومن هذا الوادى نقده لبعض الأحوال الاجتماعية فى عصره أو نظراته التى تكشف جانباً من تفكيره ، الاجتماعى : ينقد بخل الأغنياء عن الصدقة فيقول فى الآيات : (فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثرُ منكَ مالا وأعزُّ نفراً ودخلَ جنّته وهو ظالمٌ لنفسه قال ما أظنّ أن تبيدَ هذه أبداً وما أظن الساعةَ قائمة).. وترى أكثر الأغنياء من المسلمين إن لم يطلقوا بنحو هذا ألسنتهم فإن ألسنة أحوالهم ناطقة به منادية عليه[٢] وينقد من أهملوا آداب الاستئذان فى الآية : (يأيها الذين أمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ..) كم من باب من أبواب الدين هو عند الناس كالشريعة المنسوخة قد تركوا العمل به وباب الاستئذان من ذلك بينا أنت فى بيتك إذا رعف عليك الباب بواحد من غير استئذان ولا تحية من تحايا إسلام ولا جاهلية[٣] . ويلوم من يشركون باسم الله فى قسمهم يقول فى الآية : (وقالوا بعزّةِ فرعونَ إنّا لنحنُ الغالبون) . . ولقد استحدث الناس فى هذا الباب فى إسلامهم جاهلية نسيت لها الجاهلية الأولى ذلك أن الواحد منهم لو أقسم بأسماء الله كلها وصفاته على شىء لم يقبل منه ولم يعتد بها حتى يقسم برأس سلطانه فإذا أقسم به فتلك عندهم جهد اليمين التى ليس وراءها حلف لحالف[٤] .

وينقد المنافقين ممن يتقربون إلى السلطان بهداياهم ويحرمون الفقير إلا من شىء حقير عند آية : (ويجعلون لله ما يكرهون وتصفُ ألسنتهُم الكذب أنّ لهمُ الحسنى) [٦٢ النحل] فيقول . وعن بعضهم أنه قال لرجل من ذوى اليسار كيف تكون يوم القيامة إذا قال الله تعالى هاتوا ما دفع إلى السلاطين

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٤١٠ . والآية ٢٦ من سورة الذاريات .
(٢) الكشاف جـ ١ ص ٥٧١ . آية ٣٤ — ٣٦ من سورة الكهف .
(٣) الكشاف جـ ٢ ص ٨٩ . آية ٢٧ من سورة النور .
(٤) الكشاف جـ ٢ ص ١٢٣ . آية ٤٤ من سورة الشعراء .

وأعوانهم فيؤتى بالدواب والثياب وأنواع الأموال الفاخرة وإذا قال هاتوا ما دفع إلىّ فيؤتى بالكسر والخرق ومالا يؤبه له أما تستحيى من ذلك الموقف وقرأ هذه الآية[١].

وينقد بعض قضاة زمانه إذ يقول فى الآية : (وأنتَ أحكمُ الحاكمين) [٤٥ هود] أى أعلم الحكام وأعدلهم لأنه لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم والعدل ورب غريق فى الجهل والجور من متقلدى الحكومة فى زمانك قد لقب أقضى القضاة ومعناه أحكم الحاكمين فاعتبر واستعبر[٢] .

ويربط بين معنى الآية : (وقالَ الذينَ كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنَحْمِلْ خطاياكم) [١٢ العنكبوت] وبين ما يحدث فى عصره ناقداً إذ يقول : وترى فى المتسمين بالإسلام من يستّن بأولئك فيقول لصاحبه إذا أراد أن يشجعه على ارتكاب بعض العظائم افعل هذا وإثمه فى عنقى وكم من مغرور بمثل هذا الضمان من ضعفة العامة وجهلتهم[٣] .

والزمخشرى التقى يريد ليعظ ويرهب ويرغب لننظر كيف لونت تقواه تفسير الآية : (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زُمَراً حتى إذا جاءُوها وفُتِحَتْ أبوابها وقال لهم خزنتها سلامٌ عليكم طبتم فادخلوها خالدين) [٧٣ الزمر] جعل دخول الجنة مسبباً عن الطيب والطهارة فما هى إلا دار الطيبين ومثوى الطاهرين لأنها دار طهرها الله من كل دنس وطيبها من كل قذر فلا يدخلها إلا مناسب لها موصوف بصفتها فما أبعد أحوالنا من تلك المناسبة وما أضعف سعينا فى اكتساب تلك الصفة إلا أن يهب لنا الوهاب الكريم توبة نصوحاً تنقى أنفسنا من درن الذنوب وتميط وضر هذه القلوب[٤] .

ويرهب بالآية : (فلما رأوْهُ زُلفةً سيئتْ وجوهُ الذين كفروا وقيل هذا الذى كنتم به تدّعون) . [٢٧ الملك] وعن بعض الزهاد أنه تلاها فى أول

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٥٢٩ و ٥٣٠ .
(٢) الكشاف جـ ١ ص ٤٤٣ و ٤٤٤ .
(٣) الكشاف جـ ٢ ص ١٧٥ و ١٧٦ .
(٤) الكشاف جـ ٢ ص ٣٠٧ .

الليل فى صلاته فبقى يكررها وهو يبكى إلى أن نودى لصلاة الفجر ولعمرى إنها لوقاذة لمن تصور تلك الحالة وتأملها[١] .

هذا وقد دعاه نسكه وتقواه فى سبيل الوعظ أن يضمن تفسيره أضعف الأحاديث الموضوعة فى فضائل سور القرآن مع أن أحاديث فضائل سور القرآن سورة سورة باب دخل منه الوضع الكثير حين رغب الناس عن القرآن وشغلوا بفقه أبى حنيفة ومغازى ابن إسحق فوضعت تلك الأحاديث للترغيب فى القرآن[٢] .

والزمخشرى لا يرى غضاضة فى أن يستشهد بالأحاديث التى قد يشم من ظاهرها التجسيم الذى يحاربه المعتزلة ما دامت غايته أن يعظ ويرغب لا أن يدخلها ساحة النقاش الكلامى والجدل المذهبى فالحديث الضعيف عنده وسيلة إلى غاية يستهدفها ولعله فى هذا مدفوع بعاطفته الدينية وهو المجاور لبيت الله المنقطع لعبادته يقول مثلا . . . وعنه عليه السلام — أى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم — : أوتيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يؤتهن نبى قبلى . وعنه عليه السلام : أنزل الله آيتين من كنوز الجنة كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفى سنة من قرأهما بعد العشاء الآخرة أجزأتاه عن قيام الليل[٣] .

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٤٧٨ .

(٢) الإتقان للسيوطى جـ ٢ ص ١٥٥ و ١٥٦ .

(٣) الكشاف جـ ١ ص ١٣٤ .